حارة ضبعة

إبراهيم الجارحي

الكتاب : حارة ضبعة (رواية)

المؤلف : إبراهيم الجارحي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٨٤٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 80 - 1

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥/٦٤(٠٢)

www.shams-group.net

الغلاف : محمد جابر

رواية

حارة ضبعة

إبراهيم الجارحي



واقع؟..

ليس ثمة واقع!

فما الحياة إلا حلم في دماغ لا يفيق منه إلا الموتى

وأكثر رعب الإنسان أن يعيش في حلم إنسان آخر

ليجد نفسه مضطرًا للحياة داخل ضعفٍ ليس له،

وألمٍ ليس عليه، وضميرٍ ليس من حقه.

أنــا

إهداء

أهدي روايتي الأولى.. أو لعلها الثانية.. لا أدري، إلى مربع محدد في أرضية أستوديو بابل بالقاهرة.. ذلك المربع الذي احتوى بصبرٍ جميلٍ كل وحدتي، وكل إرهاقي، وكل جنوني، وكل كوابيسي المزمنة، وكل دخان سجائري، وحلمي الجميل... إلى مجرد بقعة عارية من خشب الأرضية احتضنتني حتى أتممتُ هذه الرواية.

وإلى الحائط المقابل لهذا المربع الذي حوّلتُه بالقلم الرصاص إلى سجل لأيامي المتشابهة، أربعة خطوط رأسية، وخط أفقي يتقاطع فوقهم يساوون خمسة أيام.

وللتصحيح ولمن لا يعلم.. سنة السجن بألف سنة مما تحصون.

ولا أعرف إذا ما كان ذلك مألوفًا، ولكنني فكرت أن أهدي هذه الرواية إلى أحد شخوصها فلم أجد بين الشخوص من يقبل أن يتلقى هديةً تُعري –بهذه الجرأة– جزءًا من خفايا شخصيته الكامنة، ففضلتُ أن أهديها لنفسي، تحيةً لها على شجاعتها في تحمل هذا التعري المقصود.

إبراهيم

٩-١١-٢٠٠٨


حارة ضبيعة

ـ هييييييه... وعهد الله أنا جدع.. وعهد الله يا "ضبعة" ما فيكي غير "العربي".

ويرفع "عربي" زجاجة الخمر المبططة التي تحمل علامة حمراء مكتوب عليها بخط ذهبي كلمة قريبة الشبه بـ"جوني ووكر"... يجرع شربَة ملأ بها فمه وابتلعها بصعوبة قبل أن ينظر أمامه بعينين زائغتين وهو يمسح عن فمه ما سال من محتوى الزجاجة مختلطًا بدماء تسيل من فمه بسبب علقة ساخنة تلقاها في طقس يومي اعتاده في "خمارة القصبي".

- ملعون أبو دي حارة اللي تنكر جمايل "العربي" عليها، يا حارة العفن والدود، يا حارة ميتة من سنين، موتوا بقى خلوا الدنيا تنضف.

يزحف "عربي" خطوتين متطوحتين إلى الأمام، ثم يستند إلى جدار "دار السرساوي" العتيقة التي تعتبر علامة مميزة لحارة "ضبعة" بسورها المرتفع الأصم، وبوابتها الحديدية المقبضة، وأسطورتها التي تتولى زرع غريزة الخوف في نفوس أطفال "ضبعة" وكبارها أيضًا إذا ما هبط الليل.

ـ يللا يا عيانين يا مجانين يا ولاد القحبة.. وعهد الله أنا جدع.

يجر "عربي" الذي قضى ليلته بالكامل في "خمارة القصبي" بالشارع العمومي جسده المهدود، بينما تتقطع أنفاسه المعبقة برائحة الكحول النفاذة، وتسيل الدماء الدافئة على جانب فمه، ويصل في نهاية التطوح إلى حوش ضيق يؤدي إلى درجة سلم وحيدة يعلوها باب بيته، بيت "العربي" الذي يكمن بضآلة؛ لعلها مقصودة؛ بين بيتين كبيرين.

الأول يملكه "عبد المجيد أفندي ضرغام"، الموظف الذي قذفه الصعيد من باطنه الحار ليعمل في كوبانية الكهرباء، هذا الاختراع الجديد الذي سمع "عربي" أنه دخل بيوتًا كثيرة وأعتقها من سخام لمبات الكاز التي تقوم – بصبر ميشيل أنجلو – بتلوين أسقف البيوت على وقع ضربات ريشة الزمن.

و"عبد المجيد أفندي" في نظر "العربي" رجل تطور عن عنزة لا عن قرد كما تقول الكتب، فهو رجل ضئيل بشكل يلفتُ الأنظار التي لا تلتفت إلا لكل شاذ، رجل مكتمل الجسد ومتناسق ولكنه مصغّر، كأنه انكمش عن الحجم الطبيعي بفعل قوة ما لا يعرفها أحد، فصار في النهاية في قياس طفل في العاشرة أو الحادية عشرة لكن له شارب كث وصلعة وجيهة يغطيها طربوشه في ساعات العمل، وطاقية من نفس لون الجلباب في ساعات البقاء في المنزل، كذلك انكمش صوته فصار حادًا، جعلته خنفة طبيعية فيه أقرب إلى ثغاء الماعز.

أما البيت الثاني فيسكنه "سلطان الحرامي"، وهو ليس لصًا، ولكنه ورث هذا اللقب عن جده الذي كان تاجرًا للغلال، ويبدو أنه تحصل على هذا اللقب بجهد بذله في هذا الاتجاه، فليس من المعتاد أن تمنح الجماهير تاجرًا لقب حرامي من باب المجاملة المحضة، و"سلطان" رجل – تقريبًا – لا معالم له، هو رجل ليس فيه أي شيء يلفت النظر، فهو مفرط في التوسط في كل شيء، متوسط الطول، ومتوسط العرض، ومتوسط اللون، ومتوسط الصوت، وكل ما فيه عادي تمامًا، وربما كان ذلك السر الذي يجعله شخصًا غير ملحوظ في حارة "ضبعة".

وقد ورث "سلطان" لقب عائلته الطريف، وبعضًا من بقايا عزِّها الزائل الذي يتمثل في هذه الدار الكبيرة، ودكانة صغيرة على الشارع العمومي تحمل لافتة مكتوب عليها بخط الرقعة (**سلطان مبارك وأولاده لتَجارة الغلال والعلافة**)، وهو ما يعني بالطبع أن "مُبارك" هو الاسم الحقيقي لهذه العائلة المنكوبة بتراث جدها الذي لا بد وكان لصًا.

يدلف "عربي" إلى صحن داره الذي يقود مباشرةً؛ وبلا قطعة أثاث واحدة؛ إلى قاعة نوم تغطي ركنًا من أرضيتها بقايا من أفرشة لونها قرح القدم بخليط من الألوان الباهتة التي لا تتميز عن بعضها بغير تركيز وتدقيق، وجدرانها الأربعة المقابلة لبعضها البعض في بلادة، عارية تمامًا إلا من قطعة من مرآة مشوهة الأطراف يبدو أن "عربي" قد هذبها بيده مستخدمًا زلطة وسندانًا من عتبة الدار الحجرية. ولا شيء آخر بالبيت.

ولكن "عربي" يبدو بوضوح أنه لا يتعشم من هذه الدار غير هذا الركن الذي ألقى بجسده عليه وبدأ في الشخير حتى قبل أن يستقر جسده على الأرض.

يعمل "عربي" كمساريًا على ترام العتبة الشهير طوال اليوم، وينهي يومه المرهق في "خمارة قصبي"، يشرب من خمرها الرديء أقصى ما تتحمل معدته المهترءة، ويقذف عباراته التي تجر عليه لعنات السكارى، وربما

صفعات "القصبي" الذي يحافظ في خمارته الحقيرة على شكل من أشكال النظام والانصياع الإجباري لسلطة صاحب المكان، ذلك الذي يقبل أن يشرب زبائنه الخمر ولا يقبل أن تظهر عليهم أعراض السُكر.

و"قصبي" مهاجر أتى إلى حي "باب الشعرية" من مكان لا يعلمه إلا الله، ولكن آثار السنين على وجهه تؤكد أنه مرَّ بعشرات الأماكن قبل أن يستقر به المقام في النهاية في هذه الخمارة التي يتخذها مقرًا للسكن كما للعمل، فهو – على خلاف المحال الأخرى – يُغلق خلف آخر زبون يغادر باب خمارته من الداخل لا من الخارج، ويفترش مساحة تحت طاولة الخدمة ينام فيها معظم ساعات النهار.

لا يعرف أحد مبررًا لنشاط "قصبي" في عمله، واجتهاده في جمع المال بالطريقة التي انتقاها، لكن "عبد الفضيل" شيخ الزاوية يخصه في خطبة كل جمعة بفقرة كاملة عن هؤلاء الذين يتطوعون بتضليل

الآخرين دون مكسب واضح يبرر أو يُشرعن التجائهم لما يُغضب الله في سبيل الكسب، ويقول الشيخ "عبد الفضيل" إن بعض الناس يتخذون شعار "إن أُريد إلا الإفساد ما استطعت"، وهم يعادلون المقابل النفسي والروحي لهؤلاء الذين يتخذون الشعار المعاكس "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت".

ولا يلتفت "قصبي" كثيرًا لمثل هذه التشبيهات والتلميحات، ولا يعتبرها في الأصل موجهة له عندما يستمع إليها تنهمر بينما يجلس في الصف الأول للمصلين في الزاوية، ويكون الخمّار القارح المصلي الوحيد الذي يؤمن على اللعنات التي يستمطرها "عبد الفضيل" على الخمر وشاربها وحاملها وساقيها: "آآآآآمين"، بينما ينشغل بقية المصلين بانتظار رده، والتضاحك فيما بينهم على جديته الغريبة وهو يؤمن منفردًا على لعنات يستحضرها الشيخ خصيصًا له ولأمثاله.

• • •

تُشرق شمس اليوم الجديد، ويدب النشاط في حارة "ضبعة" التي تصحو كل مفرداتها معًا، يصحو الأطفال للمشاركة في سيمفونية الزحام التي تختلط فيها أصواتهم الحادة بأصوات أخرى خشنة تنادي على بضائعها، وبأصوات تلقي التحيات أو القفشات الصباحية المحفوظة، وحتى أصوات الطيور المنزلية التي تخرج إلى الشارع تلقط بمناقيرها الفتافيت التي تسقط من بين هذه الأصوات المتناغمة معًا في بصمة صوتية هي الشفرة السمعية لهذا المكان.

"العربي" يستيقظ مبكرًا، رغم سكره إلى ساعة متأخرة ليلة أمس، ويزحف بصعوبة من داره إلى الشارع العمومي مرورًا بأسوار دار السرساوي، بينما يلهج لسانه بعشرات الشتائم التي يوزعها بأقصى ما تمكنه نفسه من العدالة على سكان "ضبعة"، فينال جاراه: "عبد المجيد ضرغام" و"سلطان الحرامي"، أول شتائم اليوم؛ فهما من وجهة نظره السبب الرئيسي وربما

الوحيد في تضاؤل بيته إلى أن وصل إلى هذه الدرجة من الضآلة إذا ما قورن بالبناءين الذين يملكهما "عبد المجيد" و"سلطان".

"عبد المجيد" هو الصعيدي القحف الذي ابتلانا به الله ليختبر صبرنا على الوضاعة، طريد العدالة الإلهية التي لو تمكنتْ منه لأعادته على الفور إلى صورة المعزة السوداء التي فر منها بحكمة الله التي لا يدركها البشر ولا يملكون حق الاعتراض عليها.

ويصحو "عبد المجيد" أفندي فجرًا – كعادته – لينادي على أبنائه الثلاثة بأسمائهم في نداءات متتالية ومتكررة لدرجة توقظ البؤساء الثلاثة، و"العربي" الذي تقع قاعة نومه في بقعة لا تحميها من مأمأة "عبد المجيد" باللهجة السوهاجية القحة.

أما "سلطان الحرامي"، فهو حرامي بالوراثة، اشترى من "عربي" معظم أرض داره ليضمها إلى حديقته،

وكي تستمتع زوجته – ذات الأصول الثرية – بمساحة من الخضرة والخصوصية، انتهتْ دار "العربي" إلى صحن ضيق وغرفة نوم حقيرة تُقابل غرفة نوم "عبد المجيد" القحف، التي يفيض منها صوت شخيره ليلاً وصوت مأمأته فجرًا.

أما "دار السرساوي" فهي لعنة قائمة، لقي بانيها حتفه مقتولاً في جريمة بشعة على يد ابنه الوحيد، وظلّ يدور في كافة أرجاء البيت الكبير وهو يحمل في جسده الضخم ما يزيد على عشرين طعنة، ويجأر بالسباب لابنه المجنون الذي قتله انتقامًا لموت أمه، بعد أن ظن الفتى أن "السرساوي" قتل أمه واستولى على مالها بعد عام واحد من ولادتها له، وظلَّ "السرساوي" يُعاني من جنون ابنه ويتفادى قَدَرَه الذي شعر الجميع في حارة "ضبعة" أنه قادم لا محالة، إلى أن أتى هذا القدَر في ليلة حالكة تربص فيها "خضير" لأبيه في مدخل البيت وطعنه في كل مكان من جسده تقريبًا.

ويبدو أن ضعف بنيه "خضير" مقارنة بوالده، الذي كان في حجم وقوة ثور بلدي، جعلتْ طعناته غير نافذة ولا قاتلة بذاتها، فظلّ "السرساوي" يجوب داره الفاخرة وهو يترنح تدريجيًا تحت تأثير النزف، ويترك آثار دمائه على الجدران وعلى الأفرشة. ويقول بعض الأطفال العفاريت، الذين كانت لديهم جرأة اقتحام الدار في غيبة وريثها الوحيد، إن آثار الدماء ما زالتْ ترسم على الجدران قصة هذه الأسرة المجنونة، بعد أن تجلطتْ، واكتسبتْ بعد خمس عشرة سنة لونًا أسودًا بديلاً للأحمر القاني الذي كانت عليه الدماء عندما كانت دافئة.

أما "خضير" فقد وجد طريقه مباشرة من المحكمة إلى سجن القلعة، بعد أن حكم عليه القاضي بالإعدام شنقًا، وعاد إلى تخفيف الحكم إلى الحبس خمس عشرة سنة بعد أن اقتنع في الاستئناف بخلل عقل المتهم الشاب.

ويواصل "العربي" سيره البطيء بينما تشي عيناه باكتئاب الكحول الذي يلازم صاحبه طوال النهار حتى يعود إلى الشرب مرة أخرى في الليل، وما بين هذا وذاك يوم طويل من العكننة والحموضة وتهيج الأعصاب، واحمرار العينين وزيغهما.

البدلة الصفراء الكالحة، ودفتر التذاكر ذو القاعدة الخشبية التي لوّنها العرق وطين الشقاء تحكي الكثير عن مهنة "عربي"، وهو في الواقع كمساري ترام تقليدي جدًا، يفقد عدوانيته المستديمة بمجرد الخروج من حارة "ضبعة"، ويتحول إلى رجل في منتصف العمر يتمتع بخفة ظل غير منكرة، وتتحول لعناته الجارية على لسانه طيلة وجوده في "ضبعة" إلى سلسلة من النكات والقفشات، وربما المعاكسات الخفية التي يُطلقها إذا ما شرُف الترام بأنثى طرية من النوع الذي يستحق المعاكسة.

و"العربي" ليس الوحيد الذي يتغير طبعه وحاله عندما يخرج من "ضبعة"، فهذه هي الحقيقة الغريبة في هذه الحارة المستطيلة الضيقة، ربما كان تأثيرًا وتأثرًا جغرافيًا أو هندسيًا يُكسب بعض الأماكن صفات تغير من أخلاق وطبائع سكانها، حتى ولو كانوا يعيشون حياتهم خارجها بشكل مختلف.

لا أحد يعرف، ولا أحد يفكر، ولا يبدو أن أحدًا في "ضبعة" أو خارجها يهتم أساسًا بالتحولات الغريبة التي تتلبس سكانها بمجرد دخولهم من بوابتها الضيقة التي تفتح فمها على الشارع العمومي، وتبتلع فيه سكانها الذين يعيشون جوها المسحور باستسلام، أو بحب لا يمكن تفسيره.

"عبد المجيد أفندي" السّمج في تعاملاته مع أبنائه الثلاثة، ومع زوجته السمراء العجفاء، ومع جيرانه جميعًا، ومع كل شخص وحيوان وحشرة تسكن حارة "ضبعة"، يتحول تحت التأثير السلبي للخروج

إلى الشارع العمومي إلى شخص رزين وطيب ومتعاون، ويصير صوته الذي يكرهه "عربي" ويشبهه بصوت الماعز - دون أن يتغير عن نغمته الخنفاء - علامة على الرقة والتبسط في معاملة الناس، وهو المعروف في "ضبعة" بأنه يكره حتى نفسه ويستكثر عليها النعمة.

"سلطان الحرامي" يعيش في بيته بلا وظيفة غير الصمت، الصمت المطبق بمعناه المثالي ومعناه الفلسفي ومعناه التطبيقي، فهو لا ينطق حرفًا واحدًا ما دام في "ضبعة"، وكثيرون من صغار الحارة وشبابها يظنونه أبكمًا، ويحكي بعض من كبار السن أنهم رأوه يتكلم عندما كان صغيرًا، لكن أحدًا لا يستطيع التأكد أو التأكيد، خاصة وأن زوجته التي لا يعرف سكان حارة "ضبعة" لها اسمًا لا تنطق هي الأخرى، وتفضل الاختلاء بكتابها في مساحة خالية بالجهة الشرقية لحديقة بيتها، هي الجزء الذي اشتراه "سلطان" من "العربي" في صفقة يجهل الجميع تفاصيلها.

أما في دكانته – التي يُصرُّ على الاحتفاظ لها بلقب الوكالة – فهو يمارس مهارات بيع الكلام التي ورثها عن جده الحرامي الكبير، ولا يتوقف عن الرغي مع زبائنه القلائل، ربما إلى درجة يكرهها بعض الزبائن الذين يستعجلونه في الوزن وعدِّ النقود وإعادة الباقي.

كل سكان الحارة يعيشون بين عالمين مختلفين تمامًا، وربما متضاربين في أغلب الأحوال، عالم يبدأ عند باب الحارة، وعالم آخر ينتهي عند نفس الباب.

وحارة "ضبعة" عمومًا لا تعرف الزّوّار المؤقتين، فوجوه سكانيها ثابتة لا تتغير، يولد من يولد ويموت من يموت ولكنها تظلُّ دائمًا وجهَة لا يخطر برأس أحد أن يزورها من باب الزيارة أو التسكع أو التطفل، فـ"ضبعة" محمية بقوةٍ ما، لها قدرة خارقة على إبعاد هذا الصنف من المؤقتين.

تكيف "العربي" تمامًا مع علاقته بحارة "ضبعة" التي لا يدخلها إلا سكرانًا، ولا يخرج منها إلا مكتئبًا شاتمًا لاعنًا كل ما فيها ومن فيها، ولم يفكر يومًا في الانتقال من هذا المكان الذي لا يحفظ له أي جذور، ولا يشعر تجاهه بأي قدر من الانتماء أو حتى القبول أو التجاوب الإنساني بالحد الأدنى اللائق بما يسميه الإنسان بيتًا.

والأغرب أن الدار العفنة تبعد عن مكان عمله مسافة تقارب الخمسة كيلومترات، يمشيها "عربي" يوميًا على قدميه بلا ضيق أو تململ أو تعب أو تفكير في جدوى ومنطقية إقامته في هذا المكان البعيد عن مكان عمله، وكل ما يعرفه الكمساري القديم هو أنه عاش أغلب عمره وسيعيش ما بقي له من العمر في هذه الحارة، حتى لو عدم الأسباب والمبررات المنطقية لذلك.

ومثل "العربي" مثل الجميع في الحارة، فكلهم أتى إليها قادمًا من مكان آخر، واستقر بها كل سكانها الذين يشكل جيلهم الأكبر مؤسسي هذا المكان.

والجميع يعتبر الجميع واردًا غير مرغوب فيه، ولكن حالة كراهية المكان التي تعم حارة "ضبعة" تحول دون تبين الأصيل في الحارة من الوارد، ولكن أغلب الظن يرجح أن يكون الجميع واردًا ثم أصبح أصيلاً بقوة المغناطيسية الكامنة في هذا المكان.

• • •

ألقى "شعبان" جسده المنهك على أرضية غرفته الخالية من الأثاث تقريبًا، ووضع ما يحمل من لفائف على أرضية الغرفة ومال إلى اليمين قليلاً ليعدل من وضع البطانية البالية تحته.

وما أن استقر هيكله على أرضية الغرفة، حتى نبتت على جانبي شفتيه التين يغلب عليها اللون الأزرق ابتسامة خبيثة، ومد يده إلى جيب سترته الصفراء، وأخرج قطعة من الحشيش في حجم الفولة، وضعها مباشرة في فمه دون أن ينظر إليها وكأنها تعرف طريقها دون حاجة إلى مرشد.

بدأ "شعبان" يقطع الحشيشة إلى فتافيت صغيرة، ويخرجها من بين أسنانه مختلطة بلعابه ليضعها بحرص فوق علبة سجائره التي أخرج منها سيجارة مررها بالطول على لسانه ثم مد يده ليشقها من مكان البلل.
ووجد التبغ مكانه المناسب على ورقة البفرة التي دعّمها "شعبان" بقطعة من الكارتون قطعها من غطاء علبة السجائر، وأدار الخليط بسرعة بدت وكأنها تخاطر بمكونات السيجارة كلها، ولكنها استقرت في النهاية في شكل سيجارة مخروطية، سحب منها شعبان قطعة الكارتون تدريجيًا حتى أصبحتْ كالمبسم للسيجارة.

وفي هذه اللحظة فقط ألقى "شعبان" نظرة مطمئنة على إنجازه الصغير قبل أن يقربه من لسانه ليلصق طرفي ورقة البفرة، فتستوي السيجارة في يده على أتم الاستعداد للتناول، ولكنه بدلاً من إشعالها يُعيدها إلى علبة السجائر ليقوم بعدها بسرعة حاملاً في يده واحدة من اللفائف التي دخل بها الغرفة.

قطعتان من اللحم الأحمر، وخليط من دهن الضأن ومخاصي أربعة ثيران سقطت من الورقة المبللة بالماء والدهن إلى حلة صغيرة ليس لها غطاء، ونزلتْ فوقها بسرعة كومة من البصل النيئ ونشارة حبتين من جوزة الطيب.
يلتقط "شعبان" علبة الكبريت الذي أشعل به وابوره، وبنفس العود يشعل سيجارة النشوة، وتحوّلُ عيناه تقريبًا بينما ينظر إلى زهرة السيجارة ليطمئن أنها تشتعل بالتساوي على كل الأطراف.

يعود "شعبان" إلى أرضية الغرفة أكثر هدوءًا هذه المرة بعد أن بدأ الخدر يسري في رأسه، ويمد يده إلى لفافة ثانية يخرج منها زجاجة من "البراندي" البلدي، ويضعها بالقرب من الباب علّها تكتسب بعضًا من رطوبة الهواء المتسرب من تحته.

اللفافة الأخيرة بها بعض المجلات الأجنبية المستعملة، فتح "شعبان" واحدة منها، وأخذ يتطلع للصور الملونة

في هدوء بينما يكتم الأنفاس الأخيرة في سيجارته حتى تخرج من خياشيمه بالتأكيد خالية من أي رائحة للحشيش.

أصابعه المتسخة من أثر الورنيش تمر بحنان بدائي على ساقيّ راقصة وقفت أمام تيار من الهواء كشف عن ساقيها الرائعتين، لحظة التقاط تلك الصورة التي وقعت في النهاية في صفحة الوسط المزدوجة للمجلة.

ويهبط "شعبان" بإصبعه من فخذها إلى ساقها إلى قدميها التين ضمهما حذاء لامع ذو كعب مرتفع عن الأرض بما يقرب من الشبر، وما أن يصل إصبعه إلى الحذاء حتى ينقر عليه نقرتين ثم يقلب الصفحة.

تتصاعد رائحة الطعام الذي يبدو الآن كوليمة تنتظر ضيفًا، فيثب "شعبان" إلى الموقد زاحفًا على ركبتيه، ويضيف المزيد من الماء على حلة اللحم، ثم يعود زاحفًا كما جاء من حيث جاء.

يمد يده ليفتح الغطاء المعدني عن زجاجة البراندي لتتصاعد منها رائحة الكحول المميز لكل خمر رخيص ولا يجد إلا أن يبعد وجهه عن فم الزجاجة حتى تنفث البخار الحار المختزن فيها.

يرفعها إلى فمه مباشرة، ولا يبدو خيار الكوب أو الكأس أكثر من رفاهية فارغة، ويهبط السائل الحارق إلى معدته، ويكاد "شعبان" ينتهي من الزجاجة على دفعة واحدة، لكنه توقف قبل نهايتها بقليل ليمد يده في جيب سرواله، يخرج منه جزرة قضم رأسها وبصقها بعيدًا فزحفتْ على حافتها الدائرية نحو الباب وتوقفت هناك.

وبدأ الرجل يمضغ ثمرته بهدوء بينما تتحول ملامحه إلى الغضب حينًا وإلى السعادة الساذجة حينًا كلما مرّ من أمامه فصل من فصول السنوات الأربعين التي مرت من عمره.

يرفع "شعبان" ما تبقى في زجاجته الصغيرة على دفعة واحدة، ويطرق الزجاجة بقوة على الأرض علامة انتهاء مرحلة الاستعداد الأول، لتبدأ مرحلة الاستعداد الثاني لما تبدو بما لا يدع مجالاً للشك أنها ليلة حمراء.

تنتهي الوجبة سريعًا ليجلس بعدها شعبان مستقرًا هادئًا لا تظهر على ملامحه سوى علامات بسيطة لعسر هضم الدهن، وترتفع أنفاسه ببطء شديد بتأثير هذا العسر الذي اختلط أثره بأثر الحشيش والبراندي الرخيص في توليفة نادرة لا يعرفها سوى سكان هذه الدائرة التي تحيط بقلعة صلاح الدين العتيقة ومَن شابههم من سكان المناطق الشعبية بالقاهرة.

القاهرة مدينة متعددة الأسقف، حتى لو لم يكن ذلك ظاهرًا، هذه مدينة فوق كل سقف فيها سقف آخر يدركه أهله ولا يدركه من يستظلون به.

لم يبق إلا أن تدق الباب تلك المرأة التي أُعدت لها هذه الليلة الصارخة، ولكنها لا تأتي أبدًا، وإنما يقوم "شعبان" بخطى متثاقلة نحو باب الغرفة ليغلقه من الخارج متخذًا طريقه نحو الشارع العمومي.

لا يرى شعبان تحت سخام حارة "ضبعة" غير "زبيدة"، تلك المرأة البضة، فاجرة اللسان، تغسل بقايا من مواعين الطعام أمام دارها تاركةً أمامها بركة من الماء القذر، بينما يلعب ولدها الذي أطلقتْ عليه اسم "إنسان" دون سبب واضح إلا ما تكرره دائمًا بصوتها الغناج، "الإنسان من النسْيان، علشان ينسى وما يشيلش في باله يا أسطى شعبان".

ينتشي "شعبان" كثيرا للقب الأسطى، فقد عمل لثلاث سنوات طويلة تحت يد الأسطى "نعيم" حتى انفرد بدكانه الضيق الذي يكمن على ناصية حارة "ضبعة".

واليوم أصبح له مكانه بعد أن اكتسب صنعة لم تكن له أبدًا، وأصبح إسكافيًا يشهد الجميع بما له من مهارة فائقة في إصلاح بل وفي صناعة الأحذية الجلدية.

• • •

يصل "عبد المجيد أفندي" إلى مكتبه الذي يُدير من خلاله وحدة كاملة من الكشافين والمحصلين الذين يدورون على المنازل لقراءة عداداتها، مهنة جديدة ونادرة ولا يعرف الشباب الجدد أنها مهنة تحتاج إلى فنون راقية يملك مفاتيحها "عبد المجيد أفندي"، ويحمل على عاتقه مهمة توصيلها بأسلوب نادر لهذا الجيل الجديد من الكشافين.

يجتمع كعادته كل صباح بفريقه الذي يَعتبر كل فرد فيه ابنًا له، ويوزع عليهم بنفسه دفاتر اليومية والإيصالات – رغم سهولة إحالة هذه المهمة إلى أي موظف آخر يتبع إدارته – ويدفع في أبنائه شحنة من الحماس تليق بجنود على وشك الانتشار في ميدان المعركة.

ولكن نشر "عبد المجيد أفندي" لقواته لا يخلو من لفتة رومانسية تنافي مبدأ المعركة كفلسفة، فكشاف النور ليس خصمًا لصاحب العداد كما يتصور البعض على الجانبين، فليس الكشاف مخبرًا يبحث عن خطأ، وليس صاحب العداد عدوًا يبطن سوء النية، رغم أن الواقع يرجح هذا التناول، أما "عبد المجيد" فيرى أن الصداقة والثقة التي يستطيع كشاف النور بناءها مع جمهور أصحاب العدادات في لحظات يسمح فيها له بدخول المنازل، هي أفضل طريق يمكن لكوبانية الكهرباء أن تضمن به ولاء الزبون، الذي سيشعر تلقائيًا بالحب تجاه مؤسسة تقدم له خدمة لا غنى له عنها، إذا ما استبعدته هذه المؤسسة بمبادرة منها من خانة المشتبه في تلاعبهم بالعداد، هكذا هي فلسفة "عبد المجيد أفندي ضرغام" التي يؤمن بها ويزرعها في فريقه ويروج لها كنظرية جديدة للتعامل مع الجمهور.

ـ الريج الحلو، والكلمة الطيبة، والصبر الصبر يا جماعة، الناس دي كلك ما فاهماش لسة إشي عداد وإشي كيلو كهربا وإشي سير بيلف ويحسب عليهم بدل الجاز، الناس مالهاش صالح باللكلكة دي، وانت كمان ماليكش صالح، عليك تجرا المحروج العداد وتيجي كاتب جرايتة في الدفتر، وسلامو عليكم عليكم السلام.

يبتسم شباب الكشافين للهجة "عبد المجيد أفندي" الطريفة والغريبة على بعضهم من أبناء القاهرة، ويتعجبون لقدرته على تمثيل المواقف المحتملة الحدوث بين الكشاف وصاحب العداد، ويزيد إعجابهم بتخريجاته الطريفة من المواقف التي يبتكر منها كل صباح موقفًا جديدًا، يقوم وحده بكل الأدوار فيه.

وينتهي اجتماع الصباح بما يزيد على عشرين شابًا ينطلقون في طريقهم نحو جهات مختلفة في القاهرة، كما تسري الكهرباء في الأسلاك مدفوعةً بأسرارها

التي لا تخلو من الرومانسية التي أدركها "عبد المجيد أفندي" وتلقوها هم من قابسه العجيب.

• • •

ترام العتبة هو الأكثر ازدحامًا بين وسائل المواصلات في القاهرة، فهو –أيًا كانت الوجهة التي أتى منها– يصب في أكثر ميادين المدينة نشاطًا.
والعتبة مركز تجاري يخفي وراءه مركزًا ثقافيًا وحضاريًا أدى ظهور الترام إلى تحويله إلى نقطة التقاء للتائهين.
طلاب الأزهر الذين يسكنون الحزام الأكثر فقرًا حول الميدان، ويسعون إلى متعِهِ السرية كلما تيسر المال وكلما انحرفت الأمزجة نحو التطرف، والمهاجرون الجدد الذين يعتقدون أن البداية الحقيقية لصعودهم لا بد وأن تكون في هذا القلب النابض، الذي يفترض أن يضخهم في شرايين القاهرة وبالضبط في الأماكن التي تنتظرهم. أفندية يستكشفون حرفة الكلام والسياسة

على يد غرباء يحلّون أحيانا بقهوة "متاتيا"، ويزرعون أفكارًا ما إن تُأتي أكلها حتى تشتعل في البلد ثورة كهوجة عرابي.
وغير هؤلاء من التائهين الذين تحول تيههم إلى شكل من أشكال الفوضى تترابط مكوناتها غير المتجانسة بخيوط من الحكمة غير المفهومة، تلك الحكمة التي نحتت عبارة "سبحان الله" وأجرتها على ألسنة كل من يحاول فهم المبرر الذي يربط هؤلاء بهؤلاء داخل هذا المحيط البشري الذي يحمل اسم "ميدان العتبة".

"العربي" يقوم في هذا العالم بنفس الدور الذي يقوم به الملَكان اللذان يقف أحدهما على باب الجنة والآخر على باب الجحيم، فهو كمساري الترام الذي يحمل في باطنه يوميًا آلاف التائهين، ويقذفهم من أبوابه المتعددة إلى ميدان العتبة، فيلقى كل باحث عن الجنة جنته ويلقى كل باحث عن الجحيم جحيمه.

ويبدو أن "العربي" يدرك جيدًا ذلك الدور المزدوج الذي يقوم به، ويمارسه على تضاربه واختلافه بدقة تجيد الفصل بين متناقضاته، فالتذكرة التي يقطعها لأحد طلبة الأزهر، يكتب على ظهرها عبارة قصيرة ربما كانت كل ما يحتاجه هذا القروي الباحث عن المتعة في مكان يجهل مسالكه: "بيت بديعة العايقة، بس خد مزاجك معاك"، والتذكرة التي يقطعها لأحد أفندية السياسة، يكتب عليها عبارة لولاها لما مرتْ ليلة هذا الأفندي على خير: "متاتيا مزروعة مخبرين".

ويقوم "العربي" بدور أكثر أهمية بين هؤلاء الذين يتخذون الترام نفسه منتدى أو ملجأ، سواء كان مؤقتًا أو دائمًا، فهو مهندس العلاقات بين ركاب الترام شبه الدائمين، يغزل على ظهر تذاكره رسالة غرام قصيرة بين ولهان ركب الترام وراء أنثى يسعى لاعتلائها حلالاً أو حرامًا، ويكتب رسالة وساطة بين الشاب الخجول وتاجر الكيف الذي ينتظر مبادرة التعارف

الأولى والتي لا يصح له كتاجر يبغي الحفاظ على كرامة بضاعته أن يبدأ بها، ويخشى الشاب أن يكون صاحب المبادرة التي قد تقوده إلى التعرف على وجه التخشيبة.

ولا ينسى "العربي" نصيبه من الدنيا، وعلى حد قوله: "طباخ السم بيدوقه"، يكتب "العربي" بعض الرسائل على تذاكره لحسابه الخاص، وهذه هي الطريقة التي يتحصل بها على مواعداته الغرامية التي تكفيه شر الزواج وما يسميه المحبطون استقرارا وأسرة، وهي نفس الطريقة التي يشتري بها الحشيش الذي يستهلك نصفه ويبيع نصفه لـ"شعبان" الإسكافي بضعف الثمن، وبذلك يكون قد ضمن كيفه مجانًا على حساب شعبان المغفل الذي يقبل راضيًا بالصفقة المنقوصة دون أن يناقش مبالغتها أو يشكو غبنها، والأكثر من ذلك أنه يقبل نصف الكمية مبتسمًا راضيًا وربما أخفت ابتسامته إعجابًا خاصًا بأسلوب "عربي" في النصب عليه.

لا يجهد "العربي" نفسه في التفكير في هذه الأمور التي تجري كلها في حارة "ضبعة"، والحارة يقبل كل سكانها كل غرابتها وشذوذها بتسليم المؤمنين، خاصة عندما يكون شذوذًا بسيطًا كهذا، لكن "العربي" لا يمنع نفسه أبدًا من اجترار سعادته بفهلوته التي تدر عليه هذا القدر من المخدر، فيدخنه من باب الاستخسار لا أكثر بينما يحتفظ للخمر بمكانتها في قلبه كمزاج أصيل، يسعى هو إليه ويدفع فيه ما يملك، في الوقت الذي يأتيه فيه الحشيش راضيًا ودون جهد يذكر.

• • •

لا أحد في حارة "ضبعة" يتحدث إلى الآخر، لا يشعر أي شخص بالرغبة أو الحاجة إلى التواصل حتى مع أقرب جيرانه، ولم يحدث قط أن ألقى أحد سكان "ضبعة" التحية على ساكن آخر، أو حدثه في أي شأن أيًا كانت خطورته.

والانقطاع نشأ مع نشأة هذه الحارة، ولا يتذكر أحد، ولا يفكر أساسًا في مبرره أو حتى في طبيعته، ذلك الانقطاع الذي بلغ درجة أن "السرساوي" لم يستغث بأحد من جيرانه عندما كانت دماؤه الحارة تنزف من جسده، وأنفاسه الأخيرة تفارق رئتيه بلا نية للعودة، ورغم صراخه الذي تواصل لأكثر من ساعة،لم يَهُب أحدٌ لإغاثته.

أما "شعبان" فهو أول من عرفه الناس في هذه الحارة، وربما كان هو مؤسسها، لا أحد يعرف، لقد صحا الناس ذات صباح قبل خمس عشرة سنة ووجدوه بينهم، ووجدوا أنفسهم حوله، ولا يوجد في "ضبعة" من يعرف من أين جاء "شعبان"، أو كيف كانت حياته قبل خمس عشرة سنة.

الناس في حارة "ضبعة" يشبهون مجموعة القصص القصيرة، كل منهم يعيش حكايته على حدة وانفصال دون مشاركة من الآخرين في دوره الذي يؤديه في

الحارة، فالحارة ليست أكثر من عدد من المشاهد غير المرتبطة تدور أحداثها في مكان واحد، ولا يوحد بين هذه المشاهد غير الصدفة الجغرافية التي جمعتهم في حارة "ضبعة".

وحده "شعبان" يمكن أن يتحدث إلى من يشاء، ووحده يتحدث إليه الناس، ووحده "شعبان" يستطيع أن يشارك بدور في أي قصة قصيرة تخطها الحارة.
هو الوحيد الذي يمكنه الحديث إلى أي شخص، حتى "سلطان" الذي يصمت بمجرد عبوره باب الحارة، حتى هذا الصامت يستطيع "شعبان" أن يخرجه من صمته متى شاء، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يستوقف "العربي" في مسيرته من بيته في طريقه إلى عمله، ويسأله عن الأحوال ويتبادل معه نوادر مهنة "العربي" وأسلوبه النادر في الوصل بين الناس، وبالطبع تكون هذه اللقاءات فرصة كي يبيع "العربي" لـ"شعبان" صفقة مغبونة من صفقات الحشيش، التي اعتاد

"شعبان" أن يبتلع نهبها كما اعتاد "العربي" أن يكررها كلما سنحت له فرصة.

و"شعبان" أيضًا هو الوحيد الذي يمكنه أن يلقي التحية على "زبيدة"، وعلى "عبد المجيد أفندي ضرغام" وأبنائه الثلاثة.

وباختصار، "شعبان" هو صاحب الحق الوحيد في الحديث والاتصال بأي شخص يختار في حارة "ضبعة".

ولعل ذلك هو الذي جعل "شعبان" شخصية محورية في الحارة، فلولا قدرته الخاصة على الاتصال بجيرانه، لانقطعت الحياة تمامًا بينهم، لأن "شعبان" بهذه الصفة هو المسؤول عن عقد الصفقات وإبرام الاتفاقات وإتمام الزيجات، وكلها أمور تحتاج إلى التواصل.

ويعيش شعبان بقدرته الخاصة في مقامات الآلهة بين سكان حارة "ضبعة" الذين يعرفون تمام المعرفة أن حياتهم مرتبطة بـ"شعبان"، وأنهم جميعا يدورون في فلكه، ما دام وحده يملك حق وحرية وإمكانية الاتصال والتواصل.

شخص وحيد لا يستطيع "شعبان" اختراق صمته الأبدي، وتعجز قدرته الخاصة عن التواصل أمام انقطاعه الاختياري، زوجة "سلطان".

وزوجة "سلطان" امرأة جميلة أتت من أسرة فاضلة أسسها مهاجر شامي من تجار الغلال الأثرياء، تعرف على الحرامي الكبير في إطار مهنتهما المشتركة، واختار نسبه، وزوج حفيدته لحفيده قبل خمس سنوات لم تنجب خلالها المرأة أطفالاً، ومنذ ذلك الوقت تعيش الزوجة؛ التي لا يعرف لها أحد اسمًا؛ مع زوجها في حالة صمت تام.

والصمت المقصود ليس سكوتًا، أي ليس مجرد توقف عن الكلام وإنما هو الصمت الذي لا تعرفه سوى خفافيش الكهوف، والذي لا تعرفه سوى غرف التسجيلات المطمورة تحت طبقات من الفلين المخرس.

الملاعق تسقط على الأرض في بيت "سلطان" فلا يصدر عنها صوت، والزجاج يتحطم في صمت،

والأنفاس لا تتردد، والماء يهبط من الصنابير فلا يسمع له خرير، وقطة البيت لا تموء، وتهاويم الكوابيس التي تستنطق "سلطان" في نومه تأتي في صور لا صوت لها.

أما البشر – وهما "سلطان" وزوجته – فيبدو أنهما تكيفا تمامًا مع الصمت، فقد انقطع كلاهما عن محاولة الكلام منذ ما يزيد على خمس سنوات.

• • •

يعود "سلطان الحرامي" إلى بيته في المساء بعد أن يغلق باب وكالته التي يقضي فيها النهار كله حتى تغيب الشمس، يوم طويل من البيع والشراء والجدال والمساومة كفيل بأن يفلق أشد الرؤوس بأسًا، لكن "سلطان" يصمد بصبر وربما بحب وشغف أمام ساعات وساعات من الكلام الذي لا يتوقف ولا ينتهي ولا تظهر عليه في أي لحظة أي علامة للنضوب أو السأم.

"سلطان" يتحدث إلى زبائنه بنفسه، ولا يدع لصبيه أيًا من مهام البيع أو المساومة، ولكنه يندفع دائمًا لخدمة الزبون الذي يعتبره مجرد زوج من الآذان ينتظر من يملأه بالكلام، وكل زبون لدى "سلطان" هدف مناسب وضحية مهيأة وفرصة نادرة لا يسعه إلا أن يدركها.

بينما يحتفظ لصبي الدكان بمهمة أخرى أكثر أهمية، ألا وهي مهمة الاستماع إليه عندما تخلو الوكالة من الزبائن، وهو أمر يحدث كثيرًا كنتيجة طبيعية لعملية الرغي المنهجية التي ينفذها "سلطان" على كل من يقوده حظه العاثر إلى وكالة "سلطان مبارك".

الصبي الذي يشبه الأرنب بأذنيه المستطيلتين حتى نهاية رأسه، والذي اختزلت ملامح وجهه في عينين خاليتين من أي تعبير غير الانبهار والإعجاب، والذي حباه الله بنعمة الصمم ولعنة البكم، هو المستمع الوحيد المستديم على مسرح "سلطان" اليومي، فهو مؤهل بحكم طبيعته وعاهاته الخلقية لهذه الوظيفة.

وكل ما عليه أن يقف في مكان ثابت، ويستمع، ويستمع، ويستمع، دون أن تسقط عن وجهه نظرة الإعجاب المزمنة، فيواصل "سلطان" الكلام ما دام ينال كلامه كل هذا الإعجاب على وجه الصبي، ويتكلم، ويتكلم، ويتكلم...

وقد وظّفه "سلطان" في دكانه حتى دون أن يسأل المرأة التي أتت به ذات يوم عن اسمه، لأنه لاحظ أن الفتى تتوافر فيه المواهب اللازمة للدور الذي أعده له.
ومن ساعتها و"سلطان" يمتطي هاتين الأذنين ويدعو "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين".

• • •

يجلس "شعبان" أمام دكانه ممسكًا بفردة مهترئة لحذاء من أحذية فرد من أبناء "عبد المجيد أفندي"، ويسعى بسبباته في داخلها باحثًا في طور أقرب إلى اليأس عن فراغ سليم في الجلد يضع فيه خيطًا جديدًا، ويفكر في

حال الحذاء متصورًا أنه سيكون من الأفضل أن ينسج من الخيط المشمع وجهًا لهذا المسكين الجلدي المسجى على أن يغرس فيه مسلته الحديدية بخيط إصلاح جديد لا ينفع لستر حالته البائسة.

كل ذلك لا يُقنع "شعبان" بالتراجع عن مهمته المزمنة في هذا الدكان، إصلاح أحذية أبناء "عبد المجيد أفندي ضرغام" الذي يفضل التضحية بواحد من هؤلاء الأبناء على أن يضحي بثمن حذاء جديد له.

هذا الصباح جاءه "عبد المجيد أفندي" بالحذاء ولم ينبس بكلمة عن الحذاء نفسه، فهو يعرف كما يعرف "شعبان" أن حالة الحذاء تتحدث بلسان حالها ولا تحتاج لمن يحمل شكواها، ولكنه تحدث كثيرًا عن ضيقه بتصرفات "العربي"، جار السوء كما يحلو له أن يصفه، والذي أقدم بكل جرأة على إلقاء كناسة غرفته الحقيرة في فناء داره بعد أن كنسها وجمعها في قرطاس من ورق الجرائد، هذه (العَملة السودة) حلقة

من حلقات انتقام "العربي" من جاريه اللدودين الأنانيين المريضين بالتوسع على حساب بيته الذي يدعي أنه كان أكبر قبل أن يأتي هذا الجلف من الصعيد ويحتل براحه ويحوله إلى جزء من معسكر التعذيب الذي يقيمه لأولاده، وقبل أن يستولي "سلطان الحرامي" على بقية هذا البراح في صفقة غبن وتدليس من وجهة نظر "العربي"، والتي هي صفقة لا يحلم بها جربوع كهذا الكمساري من وجهة نظر "عبد المجيد أفندي"، والنتيجة النهائية هي حوار متواصل منذ سنوات يدور بشكل شبه يومي بين "العربي" وبين جاريه، ولكن من خلال "شعبان" الذي أصبح يقوم بدور الوسيط بين المتخاصمين، لا لأنهم متخاصمون، ولكن لأنهم واقعون تحت تأثير العزل الذي تفرضه عليهم حارة "ضبعة".

لا يستاء "شعبان" كثيرًا لدوره الغريب في حارة "ضبعة"، وربما كان سعيدًا في داخله بأن يكون حلقة

الوصل الوحيدة المتاحة أمام سكان الحارة، وهو في قرارة نفسه يسعى إلى تدعيم هذا العائق القائم بين الجميع وبين الجميع، ولولا حرصه على بقاء الانفصال بين سكان الحارة قائمًا، لقصّر على نفسه المسافة، ولكان مشجعًا لأي اتصال مباشر بين الناس في "ضبعة"، وهو أمر ليس بالمستحيل كلية، فقط لم يجرب أحد أن يخرج حاجز الصمت، وربما لو غلبت الشجاعة والرغبة الصادقة لغلب التواصل.

• • •

حركة غير عادية في حارة "ضبعة"، فاليوم هو اليوم الموعود الذي يخرج فيه "خضير السرساوي" من سجن القلعة بعد خمس عشرة سنة قضاها في الحبس.

كادت حارة "ضبعة" تنسى "خضير" وفعلته المشؤومة، لولا هذا البيت الذي يحتل ما يزيد على نصف الحارة ويقف كالشاهد الخالد على جنون أسرة "السرساوي"

وخاصة "خضير" الذي ارتفع بالجنون إلى آفاق القتل والانتقام.

لا أحد يتكلم في "ضبعة" هذا الصباح، حتى "العربي" الذي لا يضيع فرصة لسب "السرساوي" وسيرته كلما مرّ بالسور الضخم في طريقه إلى عمله، مرّ اليوم على "بيت السرساوي" بسرعة ودون أن ينطق حرفًا، وقرر أن يعود من عمله مبكرًا ودون المرور على خمارة القصبي.
و"العربي" ليس الوحيد الذي فرض على نفسه حظر التجول بعد غروب الشمس في هذا اليوم العصيب، فالحارة كلها اتخذت قرارًا جماعيًا سريًا أن يختفي الجميع قبل غروب الشمس، الموعد الذي يصل فيه "خضير" عائدًا من السجن.

"خضير" ليس سببًا مباشرًا في رعب الحارة، فالجميع يعرف أن المسجون يخرج من السجن الطويل أوهن مما دخله، ولو صح ذلك على "خضير" لعاد شبحًا، فقد

دخل السجن وهو يبدو في ضآلته كطفل في العاشرة، ولعله الآن أتفه من أن يتغلب على أصغر أطفال الحارة.

الرعب الكبير كامن في احتمال عودة هذه الدار إلى الحياة بعد سنوات طويلة سكنتها فيها الأشباح وصرخات "السرساوي" الأخيرة التي لم تتوقف ليلة عن التردد بين البهو ذي الأرضية الرخامية، ودرجات السلم الخشبي الذي يقود إلى الطابق الثاني، والممر الطويل الممتد بين مدخل الطابق الثاني وغرفة النوم المغلقة في نهايته، والباب ما زال مغلقًا حتى اليوم، فهنالك انتهت مقاومة "السرساوي" للموت، وانكفأ بيديه على الباب الأبيض ليترك عليه خطين هابطين من الدماء الجافة كانا آخر ما ترك في هذه الدنيا، وهوى على الأرض المغطاة بالسجاد الثمين لينزف آخر ما تبقى من دمائه بعد أن وزّع معظمها على جدران بيته من البهو إلى باب غرفة النوم مرورًا بالسلم والممر الطويل.



الحارة كلها تخشى عودة "خضير"، فليس لهذا الفتى مكان يعود إليه سوى هذه الدار، ولو انفتحت دار "السرساوي" فلا بد وأن الأشباح التي سكنته على مدار السنوات الماضية ستخرج إلى فضاء الحارة، وربما اقتحمت على الناس بيوتها، وأقلقت نومهم وأفزعت صغارهم، وربما خرجت روح "السرساوي" القبيحة من وراء السور، وهذا أكثر الفزع وقلب الرعب، فـ"السرساوي" كان في حياته وحشًا قاسي القلب متحجر المشاعر، ولن يكون في موته أقل من شبح له نفس الخلق.

أما "خضير" فقضى فترة السجن كاملة ولم تفرج عنه السلطات قبل نهاية المدة لحسن سير أو لظرف صحي أو لعفو عام يصدره جلالة الملك، وهذه علامة أثارت تشاؤم الجميع، فقد شعر البعض أن الفتى ربما اكتسب في السجن، وبمصاحبة الجانحين والخارجين على القانون، طباعًا لم تكن فيه، قد يكون اكتسب بعضًا

من جرأة القتلة وقطاع الطريق واللصوص، وقد يكون جنونه اتسع ودائرة انتقامه امتدت لتظلل أعداء وهميين غير ا"لسرساوي"، ربنا يستر...

"شعبان" أيضًا لم يخرج من حجرته طيلة اليوم، وترك دكانته مغلقة، لكن حظر التجول الذي فرضه على نفسه لم يكن بدافع الخوف كغيره، وإنما هو شعور بالاستثارة الخفية والانتظار الذي يعرف صاحبه ما وراءه، لقد قام من نومه فقط ليخط بيده على جدار الحجرة خطًا أخيرًا ينهي به عدد الأيام التي يفترض أن يقضيها خضير في السجن -أربعة خطوط رأسية وخط أفقي يتقاطع عليهم يساوون خمسة أيام - ثم عاد "شعبان" إلى فرشته لينام مفتوح العين بثبات استمر حتى غروب الشمس.

عاشت حارة "ضبعة" اليوم يومًا من أسوأ أيامها، ساده التوتر، وغلبت عليه عصبية الحركة والتحسب والتشاؤم المبرر، إلى أن جاءت الساعة الموعودة،

فدخل الجميع بيته وأغلق بابه، وبدأ النشاط يدب في جسد "شعبان" الذي قضى اليوم كاملاً محدقًا في سقف غرفته، وفي الوقت الذي تراجع فيه الجميع عن الأبواب، بدأت كل حواسه تتجه إلى باب حجرته.

وشاهدت "ضبعة" من ثقوب الأبواب وفرجات النوافذ المغلقة وشقوق الجدران المتهالكة مشهدًا لن تنساه.

عملاق ضخم الجثة، يكسو الشعر جسده المدكوك وينفر من فتحة جلبابه البلدي الذي ارتداه على اللحم دون قميص أو سراويل تحتية رغم برودة الليلة، وفوق كتفيه العريضين رأس مكور لم تخف حلاقته غير المهذبة كثافة الشعر الذي يغطيه.

يتحرك العملاق من باب الحارة ليمر بطريقها الضيق مثيرًا الفزع بأنفاسه الثقيلة ونظرته الجامدة وضربات قدميه اللتين احتوتهما بلغة مهترئة تمزقت جوانبها لتتكيف مع ضخامة القدمين.

والمفاجأة المرعبة التي قبضت قلوب الجميع كلما مرّ "خضير السرساوي" بزاوية رؤية مناسبة لواحد من الخائفين الكامنين في دورهم يشاهدون هذا الحدث الكبير، العملاق نسخة مطابقة لـ"السرساوي"!!

"خضير" العائد نسخة من أبيه، ولولا تواضع ملابسه مقارنة بأبيه التاجر الثري، لظنه الأقدمون في حارة "ضبعة" هو "السرساوي" نفسه وقد بُعث من موته لسبب يعلم الله وحده، إنه يخلع القلوب مهما كان.

يتجاوز "خضير" كل الأبواب، ويمر على سور دار "السرساوي" دون أن يرفع عينيه إلى السور، أو البوابة أو النوافذ المشرعة، ويمر أمام دار "سلطان الحرامي"، ثم دار "العربي"، ثم دار "عبد المجيد ضرغام"، تاركًا في قلب كل ساكن انقباضة لا تنسى، ثم يتخذ طريقه دون أن يتوقف عند أي منهم حتى يصل إلى باب "شعبان".

وكأنه موعد منتظر، يفتح "شعبان" باب الحجرة ويرحب بـ"خضير" الذي انفرجتْ أساريره أخيرًا، يحتضنه "شعبان" بقوة وحرارة فيهما أخوة ظاهرة، ويمد يده بود يمسح على وجه "خضير" ويتلقى منه نظرة طفولية بريئة، وابتسامة لم يعرفها وجه "خضير" منذ خط أولى علاماته على جدار زنزانته الانفرادية، إلى أن خط "شعبان" العلامة الأخيرة على جدار حجرته في حارة "ضبعة".

دخل "خضير" دار "شعبان" وأغلق الأخير باب الحجرة، تاركًا وراءه علامة استفهام سوداء عملاقة، تزحف من باب الحارة عبر شارعها الضيق، وتكمن في خبث الأفاعي داخل نفوس كل كبير وكل صغير في حالة "ضبعة".

• • •

يكشف "شعبان" غطاء حلة كانت على الموقد، ويقربها من أنف "خضير" فتخترق رائحة اللحم خياشيمه وتنفذ إلى ذاكرته تستحضر منه رائحة الطعام الحقيقي، وأكل السجون ولو ملأ المعدة ورم اللحم والعظم يظل دائمًا بلا رائحة، وخاصة تلك الرائحة المختلطة بألفة البيوت وذاكرة طهي الأمهات.

ويمد "خضير" يده في الحلة يخرج منها قطعة كبيرة من اللحم يسيل منها إدامها الغني وتتصاعد منها أبخرة تحمل رائحة طازجة، يضعها "خضير" دفعة واحدة في فمه ويبدأ في مضغها وعيناه تنضحان بنظرات عرفان وحب، ولكنها في الوقت نفسه نظرات تخلو من العجب أو الدهشة أو الشك، وكلها مشاعر واردة وطبيعية ومتوقعة في لحظة كهذه، خاصة وأن أيًا من الرجلين لم يلتق الآخر مطلقًا، وليس بينهما ما يفسر لسكان الحارة أو لأي منهما منشأ هذا الود العجيب بينهما، ولا يفسر تفادي "خضير" لبيته واتجاهه مباشرة

لبيت "شعبان"، ولا يفسر اللقاء الدافئ الذي جمعهما على عتبة باب "شعبان".

•••

يتوجه "عبد المجيد أفندي ضرغام" إلى عمله كعادته كل صباح، وبينما يغلق باب داره وراءه، يلقي نظرة توجس إلى بعيد حيث يقف باب حجرة "شعبان" التي تقع في نهاية الحارة.
لا يطيل "عبد المجيد" النظر، ويتجه مباشرة في طريقه إلى عمله ويصل كالعادة في موعده ليجد قواته من الكشافين والمحصلين في انتظاره.

المكتب اليوم تغيب عنه حالة النشاط والحيوية المألوفة وخفتت أصوات الشباب التي كانت تصدح بالضحكات في بهجة لطيفة حتى بعد أن يدخل "عبد المجيد" الذي لا يمانع أبدًا في أن يستمتع موظفوه بوقتهم وأن يتضاحكوا بحرية ما داموا خارج وقت العمل الرسمي.

حالهم اليوم فيه اختلاف واضح على الأقل بالنسبة لـ"عبد المجيد أفندي" اليقظ دائمًا لأحوال موظفيه.

- مالك يا ولد انت وهو؟

وتجيب نظرات قلقة تساؤل "عبد المجيد"، ولكن لا أحد يرد عليه.

- إياكم جاكم خبر المحروج المعاش ده؟

يندهش الشباب للبساطة والخفة التي يتعامل بها "عبد المجيد أفندي" مع أمر خروجه على المعاش.

- المعاش كل حي يا جماعة الخير، والكوبانيات عمرها ما توجف على حد ولو "عبمجيد ضرغام".

يطأطئ معظمهم رأسه ويحتفظ بعضهم بنظرة على الرجل العجوز تترقرق فيها دمعات صادقة، وربما واجبة في هذا الوقت الذي يختتم فيه "عبد المجيد أفندي ضرغام" عمله في الكوبانية تاركًا وراءه ميراثًا من الأصول الواجبة في التعامل مع الجمهور والقواعد الحاكمة لعمل كشاف النور، ذلك العمل الذي أفنى

"عبد المجيد أفندي" معظم عمره في التنظير لأصوله وقواعده دون أن يقدم ولو لمرة واحدة على محاولة التطبيق.

"عبد المجيد أفندي" لم يجرؤ طوال فترة عمله بكوبانية الكهرباء على التعامل بنفسه مع هؤلاء الزبائن الموجودين على الجانب الآخر من الأسلاك التي تبدأ في كوبانية الكهرباء وتنتهي في كل نقطة بالمدينة.

يتهامس البعض بأن "عبد المجيد أفندي" جبان، وأنه لم ينلها قط لأنه ليس أهلاً لها، مجرد رجل خائف يجلس خلف ستار سميك يحرك من موقعه الخفي كشافي النور ويرسم خطواتهم ويؤلف حوارهم مع الزبائن، ولكنه لم ير بعينيه ولو مرة واحدة كيف يكون التطبيق العملي لنظرياته، والأكثر أن بعض الموظفين في الكوبانية يقولون إن "عبد المجيد أفندي" ربما يفشل إذا ما حاول مرة أن ينزل إلى الشارع ويقرأ بنفسه عدادًا على الحائط، وليس بين يديه كما يكون دائمًا خلال محاضراته الصباحية لتلاميذه.

وينفي الرجل دائمًا هذه الأقاويل وما يماثلها، ويقول إن بعض الناس يبدع على مكتبه أكثر مما يفعل إذا احتك مباشرة بالجمهور، وإن الله خلقه بصفات تناسب المكتب أكثر مما تناسب الشارع.

وعاش "عبد المجيد أفندي ضرغام" بهذا الوهم الذي صدقه، وصدقه الكثيرون حتى أوشكت مدة خدمته على الانتهاء وبقي بينه وبين سن المعاش أسبوع واحد.

يظنه الناس حزينًا منكسرًا إذ يقترب من عمر الموت الرسمي، أو مشفقًا على نفسه من الموعد المضروب لبداية انتظار الموت وللإعلان عن بدء موسم الشيخوخة الحقيقية، والواقع أن "عبد المجيد أفندي" يعد الثواني حتى يدرك هذا اليوم، فهو في قرارة نفسه يخشى لحظة قد تأتي في أي لحظة، ويُطلب منه فيها أن يخرج بنفسه حاملاً دفترًا وقلمًا ويتجه إلى البيوت ليقرأ العدادات بنفسه.

ولأن أشباحنا تلاحقنا ولا تغفل عنا وتتحين فرصة خوفنا منها دائمًا لتتخذها ذريعة للهجوم علينا في أوقات نظن فيها أننا أوشكنا على الإفلات منها، فقد انتظرت اللحظة التي يخشاها حتى قبل أسبوع من تقاعده لبلوغه سن الستين، ووقع ما كان يعتقد أنه يمكن أن يتقاعد دون أن يقع.

أحد شباب الكشافين شخص من النوع الذي تسخره الظروف والأقدار النحسة كي يؤثر في الجمهور بهتاف عاطفي يلهب حماستهم فيتخذون قرارًا بعمل يعود وبالاً على مساكين من النوع الآخر، نوع "عبد المجيد أفندي".

وقف الشاب النحيل وقد أخذته الحماسة وحموة المسرح فهتف من وراء نظارته السميكة قائلا:

- "الأسبوع ده كله "عبد المجيد أفندي" ينزل معانا"
- عبد المجيد: ينزل مع مين؟
- الشاب: معانا يا عبد المجيد أفندي

ـ عبد المجيد: معاكو فين يا ولدي؟

ـ الشاب: في الميدان، وسط الناس، على أرض الواقع يا أستاذنا علشان نتعلم منك عملي بقا، ونشوف الفن بعنينا واهو يبقى خير ختام لمشوارك.

لعن "عبد المجيد" أسلاف هذه الغبي الذي سلطته الشياطين ليفسد عليه مشواره المهني كله بمقترحه المسموم، ولولا أن مفاصلة ارتختْ بفعل المفاجأة لهوى بكفه على وجه هذا الشاب ليرديه صريعًا، والأنكى أن القدر لم يمهل "عبد المجيد" أكثر من ثانية واحدة عاد بعدها لينهال عليه بضربات متتالية كلٍّ منها يشبه الآخر، فقد أُعجب الجمهور بالفكرة وقرر تنفيذها فورًا، وأصبح السباق بينهم عمن يصحب "عبد المجيد أفندي" في يومه الأول.

لجهنم سفيرها الدائم في المواقف السوداء، وهذا الفتى هو سفير جهنم في هذا الموقف الذي حط على رأس "عبد المجيد أفندي" دون توقع، وليست مصادفة أن

تنتخبه الجماهير ملازمًا لـ"عبد المجيد أفندي" في يومه الأول في الميدان، فاكتمال النكبة جزء من جمالها الرومانسي، ولن تكتمل نكبة "عبد المجيد" إلا بأن يكون يومه الأول ككشاف نور رفيقًا لهذا الفتى الذي منحه شعورًا بأن الله يخلق بعض الناس لبعض المواقف وأن الله خلقه خصيصًا لهذا اليوم، ولكي يحرض على هذه الحماقة، وربما لن تكون له أي أهمية فيما بعد.

حزم "عبد المجيد" أعصابه واستجمع أطراف شجاعته المبعثرة وتناول الدفتر من الشاب وتبعه في خضوع إلى حيث يحمله خط سير الوردية وهو يتمتم من بين شفتيه "حسبي الله ونعم الوكيل".

ولم ينتظر العجوز كثيرًا حتى وجد نفسه وجهًا لوجه مع أول عداد حقيقي، وأول زبون غير افتراضي يلتقيه في حياته، وليست عبارة وجهًا لوجه بالدقة الكافية لوصف موقف "عبد المجيد أفندي"، فقد كان وجهه في الحائط بينما يعلوه العداد بما يزيد على المتر ونصف

المتر بما يضع رؤيته لقراءة العداد من موقعه في مراتب المستحيلات، حتى لو اعتلى الكرسي الذي تطوعت به صاحبة الدار، ويدرك "عبد المجيد أفندي" للمرة الأولى في حياته كم أنه قصير، ويدرك الفتى المصاحب له حرج أستاذه في هذا الموقف، ولا يطرح عليه عقله لحل الأزمة ورفع الحرج سوى أن يدور حول "عبد المجيد أفندي" حتى يصبح خلفه، ثم يحشر رأسه بين فخذي الرجل الذي أذهله أن ينحدر الإحراج إلى هذا الدرك، إلى درجة أن يحمله مساعده على كتفيه حتى يطال العداد المعلق على ارتفاع غير منطقي حتى بالنسبة لرجل عادي الطول.

يبتلع "عبد المجيد أفندي" حرجه بصعوبة ويركز في قراءة العداد، لكنه يكتشف أن العداد ثابت على قراءة نادرة، فقد ثبت العدد الأخير في نقطة وسيطة بين الاثنين والثلاثة، وأسقط في يد الرجل، فلم يحدث قط أن جاءت قراءة عداد الكهرباء بكسور من الكيلو

وات، وليس بوسعه أن يجبر هذا الكسر من تلقاء نفسه، فهذا أمر مخالف لأعراف التعامل التي وضع هو أصولها، كما أنه لا يملك أن يحذف النصف الزائد لأنه بذلك يأتي على الكوبانية بما قيمته مليمان من الكهرباء.

هذا موقف من المواقف التي سبق أن أجاد "عبد المجيد أفندي" في شرحها وتفصيل التصرف المثالي الواجب فيها، وهو يعرف بعقله أن الحل الأنسب هو أن ينتظر انقلاب العدد الأخير حتى يصل العداد إلى رقم صحيح يستطيع أن يكتبه في إيصاله، وهو أمر قد يستغرق ما يزيد على الثلاثين دقيقة على عيار المصباح الوحيد الموجود في هذه الدار.

ربة المنزل تفرك يدها تململاً منذ لحظة دخول "عبد المجيد أفندي" ومعاونه، وزادت ريبتها واحتد قلقها منذ اعتلى الرجل كتف الفتى وصار المشهد أقرب إلى الهزل من الجد، كما أن ثأثأة "عبد المجيد أفندي" التي

لم تفهم المرأة معظمها لم تنجح في توصيل فكرة الانتظار إلى رأسها المدور المختفي تحت طرحة بيضاء تغطي قمطة زرقاء ربطت على عجل، وتشير احمرارات فيما ظهر من عنقها وخديها أن كشافي النور قد جاءوا في وقت غير ملائم لصاحب الدار الذي لا بد وأنه يعد الثواني حتى تعود إليه أنثاه قبل أن يفقد انتصابه الذي لم يصل إليه بسهولة.

لن يتحمل "عبد المجيد أفندي" لحظة انتظار في هذا الموقف، وبالتأكيد لن يتحمل أن ينزل عن كتف معاونه ليخرج في جولة يعود بعدها ليعيد الكرة بكل ما فيها من حرج ومهانة، وتحته الشاب الذي يحمله لا تبدو في وجهه علامة على أنه يفهم بالضبط ما يدور حوله أو فوقه في رأس "عبد المجيد أفندي ضرغام".

وتلمع فكرة جيدة في رأس "عبد المجيد أفندي" فيشير من علوه إلى المرأة، "لو تكرمتي تجيبيلنا حتة سلك ولمبة من عندك".

تدخل المرأة إلى المطبخ وتعود حاملة في يدها دواية بها مصباح ويتدلى منها سلك أبيض ذو طرفين، وتناولها إلى "عبد المجيد أفندي" الذي يدفع طرفي السلك إلى أقرب مقبس فتنير اللمبة وتتضاعف سرعة العداد، وتمر دقائق عشر كادت فيها أصابع "عبد المجيد أفندي" تحترق من سخونة المصباح، بينما لا يبدي الفتى الذي يحمله أي تململ، فثقته في حمله تجعله على يقين بأنه يعرف ما يفعل، وأن الموقف ولو طال لا بد وسينتهي بتصرف يصب في صالح الكوبانية، كما أن ضآلة "عبد المجيد أفندي" الشديدة لا تجعله حملاً يذكر على كتفي هذا الشاب.

وأخيرًا ينقلب العدد المشؤوم فينجبر الكسر، ويفصل "عبد المجيد أفندي" المصباح عن المقبس، ويتناول دفتره ليكتب فيه الرقم الصحيح ويسلم الإيصال للمرأة التي تأكد لها منذ فهمتْ خطة "عبد المجيد أفندي" لقلب العدد المكسور أن عصريتها لن تتم إلا إذا بدأت

من جديد، وأن زوجها الذي تسمع زيق تقلبه على الفراش بالداخل قد يئس من عودتها في وقت مناسب واتخذ وضعية النوم بعد أن صرخ من الداخل بعبارة واضحة المعنى : "محروق أبو الكهربا لأبو الكوبانية لأبو كشاف النور، طب أهي الكهربا قطعت، شوفوا مين اللي هايدورها تاني".

لا يبالي "عبد المجيد أفندي" كثيرًا لهذا التعليق السخيف، ويعتبره عرَضًا من أعراض المهنة لا يجب الالتفات له، كما أنه كان مشغولاً ببهجته بنجاح أول مهمة كشف وتحصيل يقوم بها، ويخرج "عبد المجيد أفندي" إلى الشارع وهو يشعر بثقة لا مثيل لها بعد أن انكسر الحاجز الذي خشيه طوال مدة عمله بالكوبانية وصحيح أنه فشل في التواصل مع المرأة في البداية، لكنه في النهاية حل الموقف كما يجب أن يكون، ولم يفشل نهائيًا كما كان يخشى ويتوقع، وتعززت ثقته أكثر بارتفاعه الجديد، فهو حتى اللحظة لم ينزل عن

كتفي معاونه الشاب، واختلطت بهجته بنجاحه غير المتوقع بسعادته لاستكشافه لأول مرة في حياته لرؤوس الناس من أعلى، وقرر "عبد المجيد أفندي" أن يتعفف عن الاستجابة لنظرات الناس الساخرة، وأن يبقى في مكانه، محمولاً على كتفي معاونه حتى نهاية اليوم، وربما خلال الأيام الستة التالية قبل خروجه إلى المعاش.

• • •

لا يتمالك "العربي" نفسه من حبسة الدار الإجبارية التي اضطر إليها ليلة أمس ويقرر هذه الليلة أن يعيش حياته بشكل طبيعي بغض النظر عما يمكن أن يحدث في الحارة نتيجة عودة "خضير السرساوي" من سجنه، وخرج في الصباح إلى عمله وانتهى من يومه بشكل طبيعي وعاد مباشرة إلى خمارة القصبي ليجدها خالية تقريبًا في هذا الوقت من النهار، ولكنه لا يبالي كثيرًا، فهو يفضل هذا المكان دون زحامه المعتاد.

يدخل إلى الخمارة ويجوب بعينيه في المكان، ويتعجب كالعادة من نفسه التي تقوده إلى هذا المكان الحقير بينما يمكن أن يقضي بحكم مهنته كل لياليه في خمارات العتبة النظيفة والمهندمة، ويعود معززًا مكرمًا في الترام ثم إلى البيت.

وخمارة القصبي كانت في الأصل مقهىً بلديًا، إلى أن اشتراها "القصبي" وحولها إلى خمارة، وتحول معظم رواد المقهى إلى زبائن في الخمارة، ويبدو أنهم لم يجدوا مكانًا آخر يذهبوا إليه فبقوا في أماكنهم وقبلوا بالتغييرات الطفيفة التي أدخلها القصبي على المكان، كما تكيفوا مع تحول ساعات عمل المقهى من النهار إلى الليل، أما استبدال الشاي والقهوة والحلبة بالويسكي والطافية والزبيب فيبدو أنه راق معظمهم، بدليل أنهم يبقون حتى ساعة متأخرة من الليل يعبون من هذا الخمر الرخيص دون أن يبدو على أيهم أي حنين للشاي والقهوة، خاصة وأن "القصبي" احتفظ بخدمة الجوزة والشيشة كما هي دون تغيير، كما أنه

رفض تقديم أي نوع من الترفيه كالرقص والغناء حفاظًا على هدوء المكان التقليدي ومنعًا للمشاكل.

ولكن كيف يمكن تفادي المشاكل ما دام "العربي" موجودًا؟ فهذا الزبون بالتحديد يستطيع أن يثير في أقل من دقيقة معركة دامية تتحطم فيها معظم محتويات الخمارة وأثاثها، وهذا ما يحدث كل ليلة.

"العربي" لا يحاول وربما لا يستطيع منع نفسه من التعليق على أي شاردة تمر أمامه بتعليق يثير ضحك الجالسين في الخمارة، كما يثير حنق صاحب هذه الشاردة فيهب على الفور محاولا الإمساك بخناق "العربي"، فيتصدى له جمهور "العربي" لسببين، الأول هو أنهم بالفعل مستمتعون بفكاهته، والثاني هو أن معظمهم كان ضحية في ليلة ما لهذه الفكاهة، وتسودهم رغبة دفينة – ولكنها جماعية – بضرورة أن ينال الجميع نصيبه من سلاطة لسان "العربي" بعدالة مناسبة.

وكل ليالي خمارة القصبي تنتهي بالعراك، وينتهي العراك بتحطيم محتويات المكان على رأس صاحبه وزبائنه وبينهم "العربي" الذي لا يحاول الهرب رغم أنه لا يضرب أحدًا ولا يحاول، لكنه لا يستطيع منع نفسه من المشاهدة والمشاركة بدمه المراق يوميًا، لكأنه مدمن لعلقته اليومية أكثر من كونه مدمنًا على طافية "القصبي" وخمره الرخيص.

يدخل "العربي" كعادته إلى الخمارة وتبحث عيناه عن وجهٍ يعرفه ويمكن أن يتحول إلى ضحية محتملة لفكاهاته الفجة، فتصطدما بما لم يتوقعه إطلاقًا، بل بما جاء إلى خمارة القصبي خصيصًا كي يتفادى التفكير فيه، "خضير السرساوي" يجلس على أحد المقاعد كجبلٍ من اللحم عليه رأسٌ مكور قبيح رَسمت عليه سكاكين الأشقياء من رفاقه في السجن لوحة تأثيرية تحكي قصة وحشية للسنوات الخمس عشرة الماضية، وبين شفتيه سيجارة ملغومة يمتص

منها بلا توقف ودون أن ينزعها من فمه، ولا يبالي كثيرًا للدخان الذي ملأ عينيه وأسال منهما دموعًا غير حقيقية، وأمامه يجلس "شعبان" بعينين مسبلتين وأمامه كأس من الزبيب وبين أصبعيه سيجارة شبيهة بتلك التي وضعها "خضير" في فمه، وعلى وجهه شبح ابتسامة.

أربكته المفاجأة غير المتوقعة وضربتْ قدرته على التفكير لدرجة أنه بدلاً من أن يسعى للفرار من المكان في أقرب فرصة، اتجه مباشرة نحو مركز الخطر ووجد نفسه دون أن يدري مجذوبًا إلى الطاولة التي يجلس عليها "شعبان" و"خضير السرساوي"، ألقى التحية على "شعبان" وسلّم عليه بود مبالغ فيه مبالغةَ من يتقي شرًا، ثم توجه بنظره مدققًا في وجه "خضير" المثير دون أن يتكلم أو يلقي التحية، وصبر "خضير" على نظرة "العربي" للحظات، وبدا خلال هذه اللحظات وكأنه لن يستجيب إطلاقًا للنظرة المبالغ

فيها، ولكنه مد يده في هدوء شل حركة "العربي" تمامًا وامسك به من ياقة سترته الصفراء وجذبه نحوه دون قسوة حتى قربه من وجهه وأصبح بإمكان "العربي" أن يشم أنفاسه القذرة، ثم وضع قبلة حانية على وجهه.

لم يتحرك "العربي" ليعود إلى وضعية الانتصاب مرة أخرى، رغم أن "خضير" ترك ياقة السترة وعاد ليستمع إلى "شعبان" مستكملاً الحديث الذي قطعه دخول "العربي" إلى الخمارة، ثم عاد بنظره مرة أخرى نحو وجه "العربي" الذي ما زال في متناول أنفاسه وحاول أن يطبع عليه قبلة ثانية، لكن "العربي" يفيق في هذه اللحظة وينسحب كليةً من الموقف قبل أن تدركه شفاه "خضير" الذي أثار حنانه الغريب ريبة "العربي".

"القصبي" يدور في المكان بعصبية واضحة، وزادت عصبيته بظهور "العربي" المبكر، وجره قلقه وتوجسه مما يمكن أن يحدث في هذا المكان في ليلة كهذه إلى

الطواف على الطاولات بخرقة بالية يمسحها، على الرغم من أنه كان قد أنهى للتو تنظيف المكان وإعداده لسهرة اليوم، ولكنه لا يملك إلا أن يفرغ قلقه في أي حركة في انتظار أن يزدحم المكان ويبدأ العمل الحقيقي. وبين تنظيف طاولة وأخرى، يرفع "القصبي" وجهه الأسمر الممصوص إلى "العربي" وعليه نظرة استعطاف، ولسان حاله يتوسل إلى "العربي" أن يلم لسانه في هذه الليلة الغبراء، فأي كلمة طائشة ربما تؤدي إلى عركة من النوع الذي يسقط فيه القتلى وتتحطم فيه الطاولات والكراسي بلا أمل في الإصلاح، وربما جن جنون "خضير" لأي سبب وأقدم على سحق رأس "العربي"؛ وهو في نظر "القصبي" يستحق ذلك؛ ولكن يا حبذا لو تم إعدامه خارج الخمارة.

أما "العربي" فقد استغل ما أحسه من قلق القصبي في إثارة المزيد منه، فعلق على شفتيه ابتسامة بها خليط من الشماتة والتحدي واللامبالاة.

تمر ساعة ويزدحم المكان وتدب فيه الحياة جزئيًا، فيما يبقى التوجس عنوان الليلة التي لا يعرف أحد علاما تنتهي، يأتي إلى خمارة "القصبي" صنوف الزبائن بين حرفيين وصغار تجار وعاطلين ما أكثرهم في وقت ضرب فيه الكساد أسواق العالم أجمع، وخلّف وراءه شكلاً من أشكال البطالة المشروعة، وهي بطالة تستند على العناوين الرئيسة في الصحف لشرعية تعطلها عن العمل، تلك الشرعية التي تمنحهم قدرًا إضافيًا ضئيلاً من التعاطف.

ويمر الوقت ثقيلاً على الجميع بالرغم من نشاط القصبي الواضح في خدمة الزبائن وتهذبه الطارئ في التعامل معهم، خاصة إذا سكروا وارتفعت أصواتهم فهو يسارع إليهم ويمازحهم ويحاول قدر استطاعته أن يقضي على أي عركة وليدة في مهدها، لكنه والجميع كانوا يعرفون أن الخطر يكمن في "العربي" الذي انعزل في ركن بالقرب من نصبة القهوة التي تحولتْ إلى بار،

مُركزًا نظره من بعيد على "خضير السرساوي" وهو يعب من زجاجة الزبيب بلا حساب.

يقوم "العربي" ليتمطى ويعدل ملابسه، فيتكهرب الجو المشحون ويبدأ رواد الحانة في اتخاذ وضعياتهم الدفاعية المحفوظة، ويثب "القصبي" على الفور نحوه محتضنًا إياه وفي ظنه أنه يمنعه من ارتكاب حماقته اليومية، إذ ينتظر "العربي" دائمًا حتى يسكر ثم يعتلي النصبة ويبدأ فيما يشبه العرض المسرحي المنفرد، وهو عرض يتضمن رقصًا ماجنًا وتمثيلاً وتقليدًا مضحكًا ومقاطع ساخرة يبدو أن "العربي" يقضي ساعات السكر الأولى في تأليفها وإعدادها.

ـ القصبي: اقصر الشر يا سي عربي، رايح فين؟

ـ العربي: "فيه ايه يا قصبي مالك، انت هاتبوسني انت كمان ولا إيه؟

يخشى "القصبي" أن يطير التعليق المقصود إلى آذان "خضير"، فيُفلت "العربي" من بين ذراعيه ويعيد بسرعة ضبط هندام سترته الصفراء وهو يتمتم : "لا العفو يا سي عربي، العفو".

ولا وسيلة لتفادي خطورة لسان "العربي" سوى أن ينسحب في صمت ويتجه على الفور إلى النصبة ويعود منها حاملاً زجاجة أخرى من الزبيب، يضعها على الطاولة أمام "العربي": "اتفضل يا سي عربي، ألف هنا"، ولا يجلس "العربي" بل يرفع الزجاجة مباشرة إلى فمة ويجرع منها وهو مغمض العينين مكشر الوجه بسبب حرقة الكحول في حلقه، ويهبط بها على الطاولة دون أن يفلتها بعد أن أفرغ نصف ما فيها في جوفه.

يرفع "العربي" ذراعه والزجاجة في يده إلى أن وصلتْ إلى مستوى بصره، في إشارة مبهمة نحو "خضير"، ولكن الإشارة أصبحتْ صريحة عندما فرد "العربي" سبابته ووجهه إلى "خضير": "أنت!"

عند هذه اللحظة أدرك كل رواد خمارة "القصبي" أنّ اختيار "العربي" قد وقع في النهاية على هذا العملاق ليصبح ضحية عرضه الفكاهي، وهكذا فشلتْ كل جهود القصبي في تفادي ما لا يمكن تفاديه، واستسلم رواد الخمارة لقدرهم اليومي، وتحركوا في سرعة وتنظيم أقرب إلى التحرك المتفق عليه مسبقًا ليتخذ كل واحد منهم موقعه خلف طاولة، أو تحت مقعد، أو وراء النصبة، وهو المكان المحجوز دائمًا لـ"القصبي" بوصفه صاحب الخمارة.

أما "العربي" فقد قفز فوق النصبة العالية ليصبح مرئيًا بوضوح من كل زوايا الرؤية في الخمارة، وتوجه بنظره إلى "خضير":

- "انت يا بغل انت، قوم على حيلك، انت إيه يعني؟ ما حدش قاللك على "العربي" وهو بيدلك على الخمارة الوسخة دي؟ وإيه يا بن السرساوي البوسة المايعة دي؟ انت كتر القعدة في السجن علمتك عشق الرجالة ولا إيه؟ تعرف ان ابوك كان كدة ياد انت؟"

لم يضحك أحد من الحاضرين لمسرحية "العربي" هذه الليلة، وحلّت محل الضحك وصلة طويلة من الصمتْ الرهيب، قام بعدها "خضير" فجأة من مكانه مثيرًا حوله موجة من الفزع، وتضاعفت استعدادات الحاضرين للمعركة، دون أن يسأل أحدهم نفسه أبسط سؤال مفترض في لحظة كتلك، لماذا لا أفر بجلدي فورًا بدلاً من الانتظار للمشاهدة أو للمشاركة في المجزرة القادمة؟

رفع "خضير" يديه بأعلى ما يطيق ثم هوى بهما على الطاولة التي كانت تفصل بينه وبين "شعبان" ففلقها نصفين وسقطتْ أرضًا دون أن تسقط قوائمها التي انغرست في الأرض الطينية من ثقل الضربة، ثم جرى نحو النصبة التي يقف عليها "العربي" بخفة لا تتناسب مع حجمه الضخم وهو يطيح بطاولات الخمارة ومقاعدها في كل اتجاه كأنه إعصار غاشم حط بالمكان.

يصل "خضير" إلى النصبة التي يقف عليها "العربي" مجمَدًا أمام الهول القادم نحوه، ولا تستجيب أعضاؤه لأجراس الإنذار التي انطلقتْ تصرخ بداخله، وكأن جسده أدرك أنها النهاية؛ بغض النظر عن تمسك عقله بالحياة إلى درجة الهرب.

وقف "خضير" أمام النصبة ثم مد يده وحمل "العربي" من وسطه بسهولة كأنه دمية في يد طفل ووضعه على الأرض أمامه،وأدرك "العربي" في هذه اللحظة الحاسمة مشاعر الفرائس إذا ما أدركت أنها هالكة، وأن الموت حتمي لا فرصة للفكاك منه.

وضع "خضير" يمناه على قفا "العربي" ومسح بكمه الأيسر على جبهته فيما بدا للجميع استعدادًا لروسية حاسمة تسكت "العربي" إلى الأبد لينتهي نهاية صراصير الغيط إذا ما أدركتها القباقيب، وقبل أن يفتح فمه بحرف كان قد تلقى زلزالاً هائلاً على هيئة روسية كادت تفلق جمجمته، ولولا تدخل "شعبان"

الإسكافي في هذه اللحظة الحاسمة لتبعتها ثانية وربما ثالثة تقضي على حياته.

وضع "شعبان" يده على كتف "خضير" فخرج في لحظة من حالة الثورة التي كانت تسيطر عليه، وتحول حاله فجأة إلى النقيض، فاحتضن "العربي" المغشي عليه في شفقة ورفعه على كتفه كجوال الذرة، وخرج به من الخمارة يتبعه "شعبان" كما تتبعه عيون رواد خمارة "القصبي" من مخابئهم وكل منهم يرسم في رأسه لمصير "العربي" سيناريو أكثر سوداوية من الآخر.

• • •

يفتح "العربي" عينيه بصعوبة بالغة بعد أكثر من عشرين ساعة قضاها في إغماء تام، ويرى من بين غشاوات الغيبوبة هيكل "خضير السرساوي" يجلس إلى جواره ويفتح فمه في ابتسامة تكشف عن أسنانه التي تبعثرت في فمه بعشوائية لا تدل على تخطيط مسبق، بينما يقف وراءه "شعبان" يراقب الموقف.

يحاول "العربي" رفع رأسه من موضعها، لكن قوته تخونه، ويمنعه الصداع المؤلم من الحركة، وتستنزف هذه المحاولة البسيطة طاقته فيعود مرة أخرى إلى غيبوبته التي دخلها هذه المرة اختياريًا هربًا من وجه "خضير" وذكرى "روسيته" القاتلة.

وفي عصر اليوم التالي يفيق "العربي" بشكل شبه كلي، يتحسس رأسه ليجدها معصوبة في رباط من الشاش الأبيض، بينما غرق جانب وجهه في خليط من الدماء والبن المحترق، ويفيق تدريجيًا على واقع أنه قضى الليلة ومعظم النهار التالي في غرفة "شعبان الإسكافي" وأن الذي سهر على كتم نزيفه وعلاج رأسه وتبريده بالكمادات من الحمى هو "خضير السرساوي".

يكتم "العربي" دهشته لما انتهى إليه أمر عركة الأمس، ويتحسس بقية جسده ليتأكد أن الخسائر اقتصرت على بطحة في منتصف جبهته سال منها نزيف في المربع الذي افتتحه "خضير" بجبهته الصخرية.

ينظر إليه "خضير" بحنان عجيب ويربت على صدره قائلاً بصوت دافئ لا يمت لمظهره الخشن بصلة: "جت سليمة يا عم عربي، ما تزعلش حقك عليا، أنا غلطان، ما كانش قصدي تبقى الروسية تقيلة كدة".

ينتفض "العربي" ويزيح يد "خضير" عن صدره بريبة واضحة وغضب وُلد في رأسه كبيرًا بمجرد أن تذكر مشهد الروسية كاملاً: "غور الله يخرب بيتك وبيت أبوك، ده انا لو دهسني الترماي كان أرحم".

يبتسم "خضير" ولا تثيره عدوانية "العربي" ضده رغم سهره إلى جواره طول الليل يطببه ورغم أنه اعتذر له عن الروسية التي يستحقها "العربي" بالفعل على طولة لسانه، ويناوله "شعبان" صحنًا به قليل من الحساء الدافئ يضع فيه ملعقة ويرفع كتفي "العربي" رغم مقاومته لهذا الحنان المشكوك في أمره، يرفعه حتى يعتدل في وضع الجالس ويسقيه الحساء في فمه بالملعقة وبينما يحتفظ "العربي" بشدة وجه ومطة شفتين تؤكدان

امتعاضه من "خضير" ومعاملته وحسائه؛ جلس "شعبان" في ركن من الغرفة يبرم سيجارة حشيش، ونظر "العربي" إليه من تحت ذراع "خضير" في رغبة مشاركة حقيقية فتعجل في لصق طرف "البفره" وقام على التو ليزيح "خضير" من قرفصائه الموازي لـ"العربي" الراقد، ويقترب من وجهه مناولاً إياه السيجارة بعد أن أشعلها بخفة في خطوته إليه.

يشد "العربي" نفسًا عميقًا من السيجارة ويتذوق بشعبه الهوائية خدر الحشيش فيها، وقبل أن يخرج النفس المكتوم ليسأل "شعبان" سؤالاً، مال الأخير نحو الفراش ليلتقط زجاجة مستطيلة من تحت رأس العربي قائلا: "شوية كونياك، زمانك ولعت فيهم بالليل من الحمى اللي كانت في دماغك بعد بطحة الواد "خضير" بايتة الإزازة والله تحت راسك طول الليل وأنا عارفك بتحب الكونياك سخن".

ويناوله الزجاجة ليتفحصها فينظر إليها "العربي" بتدقيق بينما يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة ويكتم الدخان في صدره بينما يشير بيده علامة الموافقة على أن يبدأ "شعبان" في صب الكونياك، ثم يمرر السيجارة إلى "خضير" فيضعها في فمه الواسع ويضغط عليها بشفيته ويشفط منها نفسًا قضى على نصفها الباقي دفعة واحدة، ثم يمررها إلى "شعبان" الذي التقط الكارتلة المحترقة ونظر إليها في قرف ثم ألقاها جانب إلى ركن من أركان الغرفة.

شوق "العربي" الحقيقي للسكر والانبساط والعربدة يتجلى في تلك اللحظة التي تستقبل خياشيمه أبخرة الكحول المنسابة تبحث في الجو عن مشتاق مثله فتصيده كما اصطاده "شعبان" بينما تتلبسه حالة الشوق فقرب إليه الكأس التي صبها وأبعدها قبل أن تدركها يد "العربي".

يندهش "العربي" لحركة شعبان المفاجئة ولكنه قبل أن يستفهم منه كان قد بادره بالسؤال:

ـ حلوة الحشيشة يا عربي؟

ـ حلوة يا اسطى شعبان، انت حلو واللي ييجي منك كله حلو، مالكش بركة الا إحنا.

ثم يضحك في توتر واضح بعد أن أدرك أن قفشة "شعبان" ليست إلا مقدمة لمحاسبة عسيرة في النصبات السابقة التي نصبها عليه في الحشيش وباعه إياه بضعف ثمنه وبعد خصم نصف الكمية، وشعبان يملك "خضير" الآن وواضح أنه يتحكم في قوته الغاشمة، ولو أطلقه عليه الآن لافترسه ولو كان بكامل عافيته، ما بالك وهو مبطوح طريح الفراش ونصف مسطول.

ـ يسوى كام الربع وقية منها يا عرب؟

ـ انت وشطارتك بقا مع التاجر.

يحاول "العربي" الاستفاضة، إلا أنه يشعر فجأة بأنه ليس ملتزمًا بتفسير أي شيء لـ"شعبان"، بل وأنه ليس خائفًا من "خضير"، ومد يده إلى الكأس في يد "شعبان"

ورفعها إلى فمه وشرب ما فيها واسترخى إلى الوراء حتى عاد إلى نوم مريح مرة أخرى.

• • •

يجلس "شعبان" في دكانته على رأس حارة "ضبعة" يعمل في ترميم أحذية أبناء "عبد المجيد ضرغام"، ورغم صبره وإتقانه لم يستطع منع نفسه من البصق جانبًا وفي خياله أن تكون هذه البصقة في وجه "عبد المجيد أفندي" البخيل الذي كان من الممكن أن يستثمر كل هذا اللوزات والرقع والتوسيعات في أحذية أبنائه الثلاثة في شراء أحذية جديدة لهؤلاء البؤساء، ولكنه يفضل أن يموت أحد هؤلاء الأبناء على أن يورطه في شراء حذاء جديد بدلاً من تلك الهياكل التي ينفق فيها "شعبان" نصف وقته ومعظم مهاراته في الإصلاح والصيانة.

ودكان "شعبان" هو بالتأكيد أصغر مكان في العالم، فهو دكان لا مساحة له تقريبًا، بمجرد أن يفتح شعبان بابه يجد جداره الداخلي مباشرة وقد عُلقتْ عليه بعض قطع الشُّغْل، وإلى جوارها فترينة بها زوج وحيد من الأحذية وبعض قطع العدة، ويستخدم "شعبان" أحد رفّيها في وضع مفتاح الدكان وعلبة سجائره. دكانة "شعبان" تثير في الناظر إليها اعتقادًا بأنها دكانة مرسومة على الحائط وليس لها بعد ثالث، ولكن الحقيقة أن "شعبان" لا يحتاج أكثر من هذه المساحة، فهو لا يخزن شيئًا وليس لديه في محله ما يغري بالعرض سوى زوج من الأحذية لا يشتريه أحد، والجلود والخيوط وغراء اللقص لا تحتاج إلى مساحة أكبر من ذلك، كما أنه لا يخفي إحساسه بالفخر أنه يملك الآن دكانه الخاص بعد أن عمل لسنوات كصبي للأسطى "نعيم" وورث عنه المهنة والدكان بعد أن اختفى "نعيم" صباح أحد الأيام، وكالعادة لم تفتقده "ضبعة" التي لا تفتقد غائبًا.

اقترب اليوم على الانتصاف وارتفعت الغيوم عن الشمس قليلاً فسرّت في الحارة موجة لطيفة من الدفء والحيوية، وبدأت "ضبعة" تنطق بشفرتها الصوتية المميزة، أن ينطق كل ما في المكان دفعة واحدة في تناغم وانسجام يسميها من لا يعرف "ضبعة" ضوضاء، ولكنها سر هندسي بديع يسري في هذا المكان، فيتحول في معظم الوقت لإعلان عن حدث جديد، ولا تكتمل هذه الشفرة تمامًا إلا لو كانت ضبعة تستعد لحدث كبير لا مجرد حدث عادي جديد.

توجس "شعبان" من التغير المفاجئ في الجو، وبدأت عيناه تبحثان عن مقدمات الحدث الذي استحق أن تستيقظ له دجاجات "زبيدة" وأطفالها، ونوافذ بيت "السرساوي"، وعصافير أشجار البونسيانا التي تحلق فوق حديقة "سلطان الحرامي"، وعجلات عربات اليد، وأصوات البائعين الجائلين.

لا يجد "شعبان" شيئًا يستحق حالة الاستنفار الصوتي في حالة "ضبعة" فيتحول تحسبه إلى انقباض ويلتفت عائدًا إلى كرسيه أمام دكانه، ولكنه يلتفت ليجد غبرة كثيفة تطل من داخلها عربة حنطور سوداء يجرها حصان بادي الأصالة رغم هزاله النسبي، وتتوقف العربة عندما شد حوذيها صرع الفرس الذي رفع رأسه وفرد مقادمه بتواز جعل حدوتيه تحتكان بتراب الأرض بما يكفي لتوقف الحنطور تمامًا أمام شعبان الواقف أمام دكانه في ذهول لا استجابة له إلا الصمت.

تنزل من الحنطور امرأة مبرقعة لا يظهر منها الكثير بينما تتسلق قوائم العربة نازلة إلى الأرض ثم تلتفت إلى شعبان فيدركها دفعة واحدة.

المرأة طويلة فرعاء، لا يعيب طولها سوى انحناء بسيط في ظهرها أغلب الظن أنه وراثي، بيضاء بلفحة شمسية مقصودة، ضيقة الخصر إلى درجة النحول إلا

من امتلاءه بسيطة تعطي نكهة العجين الموشك على الاختمار، منبسطة الصدر تقريبًا إلا من انحناء لطيف في منتصفه يرسم نهدين مكتملي الاستدارة، ورغم صغرهما إلا أنهما يحملان سر جمال أي نهدين في خيال "شعبان"، فالنهد جميل في نظره إذا كان يملأ راحة يده بلا زيادة ولا نقصان.

تحت حاجبيها المقوسين والمنتوفين بدقة عينان فاجرتان بهما صراحة لا حدود لها إلا بعضًا من خجل لا يداري أنوثتها المجربة المدربة، فهذه امرأة بلا شك تحمل بصمات أكثر من رجل، أو للدقة؛ انكسارات أكثر من رجل سقط أمام اختبارها الأنثوي المغري إلى درجة الجنون.

وعلى النقيض من نظرتها المكشوفة تظهر من وراء برقعها ابتسامة رقيقة تتمناها الملائكة، ابتسامة بلا أصباغ وبلا ألوان ولا تصنع، واليقين في براءة الشفتين يساوي تمامًا اليقين في دعارة العينين... وبلا حاجة لكل

هذه التفاصيل، فالمرأة إعلان وعنوان للتكاثر بلا شك، أو هي طلع ربيعي يبشر بموسم برتقال أسطوري.

اقتربت المرأة وألقتْ التحية على "شعبان" الذي انتبه من ذهوله ونفض عن نفسه التيبس الذي أصابه منذ أن وقعت عيناه عليها، ويرد سلامها ويسألها أن تأمره فيطيع، ويعرض عليها أن يصنع لها حذاء ما كانت تحلم به، أو أن يصلح لها حذاء ولو كان مهترئًا إلى حد التلاشي، ولكنها تقاطع فقرته الإعلانية المحفوظة بإشارة لطيفة من يدها:

ـ أنا لا جاية أَفَصَّل ولا جاية أصلح يا سي "شعبان"

ـ أمال عدم المؤاخذة جاية ليه؟

ـ جاية على السيرة.

ـ ما هي سيرة جزماتي يا ست... ؟

ـ مَلَك.

ـ عاشت الأسامي يا ست "ملك"، خدامك "شعبان" بس يعني هي الناس بتروح للإسكافية ليه؟ ما هو يا إما يصلحوا يا إما يفصلوا.

تفض ملك يدها القابضة على ملاءتها السوداء وتقترب من "شعبان" الذي تلفح وجهه حرارتها المبعثة من تحت الملاءة:

ـ أنا جاية أفرجك.

يبتسم "شعبان" إذ تدرك هورموناته الخبيرة أن المرأة فكّت الملاءة لتعرض عليه صفحة صدرها الناصعة المطلة من فتحة جلبابها الأخضر اللامع، ولم تقتنع مجساته الذكورية بالحقيبة التي أخرجتها من مخبئها داخل الملاية وأخرجت منها زوجًا من الأحذية، والتقطتْ في رشاقة نظرة "شعبان" المتسللة إلى فتحة قميصها وأعادت إلى عينيه رهبة حاسمة من تكرار المحاولة:

ـ أنا جاية أفرجك على شغل إيدي.

يتناول منها "شعبان" زوج الأحذية وينظر إليه نظرة غير مكترثة ثم نظرة أخرى أكثر تدقيقًا، ثم يرفع عينيه إليها في جدية وريبة وربما برود، فهذه بلا شك صناعة يديه رغم أنه لا يذكر أنه صنع يومًا هذا الزوج، ولكن قلبة الخيط المشمع إلى داخل النعل هي طريقته التي ينفرد بها، فهي شيء ابتكره ولم يتعلمه من الأسطى "نعيم".يدقق النظر مرة أخرى في الحذاء النسائي المدبب ويتوجه بالسؤال لـ"ملك" دون أن يرفع عينيه عن كل تفاصيل الحذاء التي لا تترك شكًا بأنه هو نفسه صانعه ولو أقسم أنه لم يفعل:

- صنعة إيدين مين؟
- صنعة إيديا يا أسطى "شعبان".
- وهي النسوان بقت بتشتغل إسكافية اليومين دول؟
- وهو الشغل عيب؟
- مش عيب بس من إمتى؟
- أنا وارثة الصنعة عن أبويا.
- ومين أبوكي عدم المؤاخذة؟
- أبويا الأسطى "نعيم" يا سي "شعبان".

لا يذكر "شعبان" أنه عرف من معلمه أنه كانت له بنت، لكن ريبته في المرأة لا تزول حتى بعد أن عرف أباها الذي شرب منه سر هذا الصنعة وتتجلى مورثاته في الحذاء الذي تقول "ملك" إنها صنعته بنفسها:

- سبحان الله
- عجبك؟
- عجبني؟ كأني أنا اللي عاملة بإيدي.
- العفو يا سي "شعبان"، ده أنا جاية آخد رأيك تقوم تتريق عليا؟
- تريقة إيه بس يا ست "ملك" إنت مش عايزة رأي حد، الجزمة مشغولة شغل صنايعي، ولولا أمارة الأسطى "نعيم" كنت قلت إنك قاصدة تخيليني بغرزتي.

مدّ "شعبان" يده ليسحب كرسيًا جلست عليه "ملك" وقد انحنت إلى الأمام أكثر، فتملك "شعبان" من زاوية نظر كشفت له عن نصف صدرها، وتبين للمرة الأولى أن بساطة مظهر "ملك" ليست إلا ستارًا زائفًا

يخفي خلفه شحنة قاتلة من الأنوثة والجاذبية، وأن سرها يكمن فيما تصدره بحساب من هذه الشحنة.

وتنساب "ملك" في كلام لم يسمع "شعبان" أكثره، ولكنه تحرر من شكه وتوتره، والتقط من بين الكلام ما يهمه فعرف أنها أرملة وأن لها ولدًا في السادسة يعيش معها، وأنها ورثت عن زوجها الراحل وعن أبيها ثروة تكفيها وتغنيها ذل السؤال، وأنها تصنع الأحذية بين الحين والآخر حفاظًا على ذكرى أبيها الذي رحل ولم ينجب ذكرًا يرث المهنة.

وأسقط "شعبان" من كلام ملك حكاية يشيب لها الغراب، عن زوجين سابقين فرّ أحدهما دون تفاصيل إلى مكان لا يعلمه إلا الله، بينما لقي الآخر حتفه في جريمة انتقامية شق القاتل فيها صدره بسكين مشرشرة وقطع يده اليمنى وحملها معه وهو يفر من مسرح الجريمة، ولم يعرف أحد إلى اليوم سبب مقتل الزوج المغدور ومازالتْ بشاعة الجريمة سرًا مستغلقًا على الجميع.

ومرّ الوقت نسيمًا حريريًا، لم تدر "ملك" أنه قد مرّت ساعتان، ولم يدر "شعبان" أنه يقيس بسقوطه في "ملك" عمق البئر التي يهوي بها، لكنه أدرك بيقين ثابت أن مقابلته لـ"ملك" لن تكون الأخيرة.

• • •

عاد "شعبان" في المساء إلى غرفته محمولاً على جناح من الهواء الدافئ، وجعله إحساسه بالنشوة يتعامى عن الحقيقة التي يعرفها جيدًا، تلك الحقيقة التي يعرف أن ظهور "ملك" ينافيها تمامًا ويهز جذورها الضاربة في هذه الحارة، حارة "ضبعة" لا تعرف الزوار العابرين، ولا يدخلها إلا أحد ساكنيها، وحتى هؤلاء السكان يحددهم "شعبان" بنفسه، يخترع من يشاء ويلغي من يشاء.

"شعبان" لم ينس أنه هو الذي اخترع شخصية الأسطى "نعيم" عندما كان يبحث عن مهنة مناسبة في الحارة،

واستهوته مهنة الإسكافي، كما لم ينس أن الأسطى "نعيم" لم يمت، وإنما قرر "شعبان" بنفسه أن يلغي وجوده من الحارة فاختفى في التو واللحظة.

ولم ينس "شعبان" أنه اخترع كل سكان حارة "ضبعة" وكل مساكنها وكل تاريخها وأساطيرها، ولم ينس أنه هو الذي ربط الخيوط التي تتعلق فيها كل الروابط الإنسانية في هذه الحارة التي لا وجود لها إلا في رأسه.

"خضير السرساوي" هو الشخص الذي رسمه خيال "شعبان" وجسده لينتقم بجبنه من طلاق أبيه لأمه وتشريده لها ولإخوته الصغار، وأعاده من سجنه عندما شعر أنه يحتاج إلى بعض القوة والحماية في حارته الخيالية، وهذا هو السبب الذي من أجله عاد "خضير" من السجن فحلاً قويًا كالثور.

و"العربي" هو الشخص الذي رسمه خيال "شعبان" وجسده لينتقم بانطلاقه وعفويته وقدرته الخارقة على

الاتصال بالآخرين من حرمانه الفطري من القدرة على التواصل الحر دون حواجز ودون الخوف التقليدي الكامن فيه من الإعلان عن وجوده ورأيه، وليستْ جرأة "شعبان" على كل شيء في الحياة إلا جزءًا من حلم "شعبان" الأبدي بأن يأتي عليه اليوم الذي يصل فيه إلى حرية كاملة تتيح له التعري في الطريق العام دون أي إحساس بالحرج أو الخوف من الإرهاب الجماعي للقطيع البشري القاسي، حتى على نفسه.

و"عبد المجيد ضرغام" هو خوفه الدفين من مواجهة مسؤوليته التي يباشرها دائمًا من وراء حواجز يضع نظرياتها بنفسه ويقنع بها الآخرين من حوله، وهو نفسه إحساسه الداخلي بضآلته وتفاهته، وهذا هو السبب الذي من أجله اخترع "شعبان" "عبد المجيد" في صورة شاذة؛ بل مكتملة الشذوذ، صوتًا وصورة وسلوكًا.

و"سلطان" هو انفصامه المزمن بين شخص قادر على التعبير عن نفسه وطرح أفكاره وقصصه وأكاذيبه طوال الوقت، وآخر يعجز حتى عن النطق والسمع ويعيش في غرفة صامتة معزولة عن الخارج بطبقات من الفلين والإسفنج وصامتة معزولة من الداخل بطبقات من الانقطاع والوحدة والملل، "سلطان" هو الصمت المجسم في باطن "شعبان"، ذلك الصمت الذي يرقد تحت ألواح الفلين ويتحين فرصة لا تأتي أبدًا كي يعلن عن حقه في الصراخ.

أما "القصبي" فهو ميله الفطري ونزوعه الأصيل إلى الخطأ وقدرته المتجاوزة على تصدير الخطيئة وصناعتها وتجميلها للآخرين بنية خالصة في الإفساد، "القصبي" هو إبليسه الذي يعتنق القبح والخطيئة والحرام ويخلص في مراده إخلاص العابد في عبادته.

يعرف "شعبان" أنه ليس مريضًا بالانفصام، ولكنه خلق هذا المكان في ذهنة لِيُسكن فيه كل الشخصيات

التي يخشى ممارستها على أرض الواقع وليشرح نفسيته التي يدرك تمام الإدراك ما فيها من انحراف وعوج.

يعرف كل ذلك ولكنه يعرف أكثر أنه لم يخترع "ملك" ولم يطلب منها أن تظهر في حياته، ومرورها في حارة "ضبعة" ليس له إلا معنى واحد واضح وصريح وهو أنه بدأ يفقد السيطرة على عالمه التخيلي وربما بدأت خيوط هذا العالم؛ دون أن يدري أو يملك التغيير؛ تفلت من بين يديه التي أحكم بها الإمساك على هذه الخيوط على مدار السنوات الخمس عشرة الماضية.

هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها شخصية جديدة في عالم حارة "ضبعة" رغمًا عن أنف "شعبان"، ومع ذلك لا يشعر بصدق رغبته الحاضرة في التخلص من وجودها وطردها من المكان الوحيد الذي يملك حرية اختيار شخوصه وتحريكهم والتحكم في كل ما يتعلق بهم وكل ما يتعلقون به.

• • •

تصبح حارة "ضبعة" وقد انتابتها حالة من النشوة الجماعية، فـ"العربي" يخرج من حجرة "شعبان" وقد ضمد "خضير" رأسه بضمادة أصغر قليلاً من سابقتها؛ وإن كانت لا تخفي التكور الكبير الذي حدث في جبهته بعد أن بدأت بطحته في الشفاء، و"عبد المجيد أفندي" يخرج في طريقه إلى كوبانية الكهربا محمولاً على كتف الشاب الذي تبين ليلة أمس أنه اسمه "ظريف" وأنه شاب قبطي نازح من المنيا يسعى لتكوين نفسه؛ وأشياء أخرى كثيرة عرفها "عبد المجيد أفندي" عن "ظريف"، ولكن أهمها هو أن "ظريف" لا يمانع في أن يقضي "عبد المجيد أفندي" أيامه الباقية في مدة خدمته راكبًا على كتفيه، فهذا؛ على حد قوله؛ أقل واجب يقدمه التلميذ المخلص لأستاذه.

ويلتقي "عبد المجيد أفندي" المحمول على كتفي "ظريف" على باب الحارة بـ"سلطان الحرامي "الذي خرج هو الآخر في طريقه إلى وكالته وقد بدا سعيدًا منبسطًا

بدليل طربوشه المطروح إلى الوراء وجاكتته السوداء الطويلة المفتوحة فوق جلبابه المقلم بخطوط سوداء رفيعة والأكثر من ذلك أنه بدأ في الغناء والدوران حول نفسه في حركات راقصة بمجرد خروجه من باب الحارة وهو يطوح بمذبته المصنوعة من شعر الخيل الأبيض.

أما "شعبان" فقد تكاسل في الصباح قليلاً قبل أن ينهض وينفض عن نفسه الخمول الذي أورثته إياه سهرة الأمس الحامية مع "خضير" و"العربي"، وكلاهما يدخن الحشيش كالقطار البخاري، وكلاهما يشرب الخمر كغريق في البحر لا يملك خيارًا غير شرب الماء المالح، لكنه في النهاية تمكن من الخروج إلى دكانه حاملاً في رأسه صداعًا يكاد يحطم جمجمته، وتاركًا وراءه "خضير السرساوي" الذي استيقظ منذ الصباح الباكر وبدأ يمارس دور الخادم الأمين، ينظف مكان رقدة "العربي" الرطبة ويخرج الفرش إلى الشمس، ويكنس أرضية الحجرة التي تناثرت فيها عظام العصافير وأعقاب السجائر وقشر الفول السوداني.

وصحيح أن "خضير السرساوي" نسخة مطابقة في الشكل لأبيه، وليس بينهما أي اختلاف في الملامح الضخمة والقاسية، لكن طيبة قلبه وبراءته الباطنية تنضح على وجهه رقة وملائكية طفولية لا تغفلها العين، خاصةً لو كانت عينًا دقيقة تستطيع أن تكشف تحت كرة اللحم والشعر تلك ما خفي من الإنسانية والحب.

• • •

يقضي "شعبان" يومًا بلا طعم سوى طعم الحموضة التي ملأت معدته بعد سهرة الأمس الانتحارية، ولا ينجز كثيرًا في عمله، ولا يتوقف عن التفكير في "ملك" التي أسَرَتْ خياله للدرجة التي سمح لها فيها باحتلال مساحة حقيقية من هذا الخيال بغير استئذان، وكفاها أنها الآن موجودة دون أمر عقلي واع من جانبه.

سيطر الهدوء والاستسلام على يوم "شعبان"، ولم ينتبه كثيرًا لحالة التراخي التي أصبح يدير بها حلمه المجسم، فقد سكت عن حديث عابر دار داخل الحارة بين "عبد المجيد أفندي ضرغام" وبين "العربي" بينما كان الاثنان في طريقيهما إلى الخارج، وهو الذي ما كان يسمح بأي اتصال مباشر بين شخوص حلمه المحكم، كما سكتَ عن عربة كارو دخلت بصعوبة من باب الحارة تحمل على ظهرها عفشًا وأثاثًا رُبط إلى العربية بحبال من الليف، ويبدو أن ساكنًا جديدًا قد قرر الاستقرار في الحارة مستغلاً حالة التراخي التي أربكت سيطرته في اليومين الماضيين.

ينهي "شعبان" يومه ويعود إلى حجرته سائرًا على قدميه في بطء وهو يضع يديه في جيبي سرواله، وينظر في بلادة إلى حذائه الذي انفك الخيط الرابط لمقدمته، وأصبح يحتاج إلى إصلاح بينما هو متكاسل عن إصلاحه، ومنشغل بما يدور في رأسه من فكر وقلق.

يصل إلى حجرته في نهاية حارة "ضبعة" ويهم بدفع الباب الموارب فيسمع صوت تأوه أنثوي صارخ يأتي من الداخل، تعقد المفاجأة استجابته وتجمد يده على الباب الخشبي، ولا يتبقى له خيار سوى أن ينصت أكثر، ياللصاعقة! هذا خوار "خضير"، وهذا صراخ امرأة وجدتْ في هذا الحيوان أكثر مما توقعتْ، وما صراخها إلا لهج بالعرفان للإضافة غير المتوقعة، ويبدو أن "خضير" قد التقط بفحولته الطبيعية خيط أول نشوة لتلك الأنثى المحمومة باللذة، ومع ذلك لا يتوقف عن دفع حرمان سنوات شبابه الضائع في رحمها حتى يكاد ينفجر، ويجلس "شعبان" على عتبة حجرته مذهولاً بينما تطرق آذانه صرخات الانتشاء المتتالية في تكرار سريع، إلى أن يسمع بعد حين خوارًا مخيفًا لا يخرج إلا من صندوق صوتي في حجم صدر "خضير السرساوي"، وتهدأ الأصوات في الداخل، ثم تهدأ الأنفاس، ويسود الصمت التام لوهلة.


حارة ضبعة

يبقى "شعبان" في مكانه مذهولاً لهمجية اللحظة، وقسوة الموقف على نفسه، فها هي سنوات طويلة، قضاها في رسم هذه الحارة بالشكل الذي يفضله، وفي نحت مبانيها وشق شوارعها بالهندسة التي يرتاح إليها وينسج شخوصها ويحقق مصائرهم على هواه، تنهار رغمًا عنه. وها هو "خضير" الذي أنشأه في خياله ليقتل وحش أبيه الكامن في ذكريات طفولته يخرج عن طاعته ويعاشر امرأة لا يعرفها ولم يسمح بها.

وينفتح باب الحجرة أخيرًا، وتخرج منه ضربة القدر الأشد قسوة، "ملك"، وقد التفتْ في ملاءتها السوداء وسارت عابرة إلى جواره وساقاها لا تحملانها، ولا يداري برقعها شعراتها البنية الخشنة التي التصقتْ على جانبي وجهها وقد جف عرقها وبعض من ريق "خضير" وسوائله الحيوية على عنقها وصفحة صدرها التي كانت بالأمس أطهر بقعة يتمناها لإقامته، ولولا يقينه أن حارة "ضبعة" بأكملها تخيلية ما اختار منها سوى هذه المرأة لتكون الساكن الوحيد فيها وفيه.

ـ واطية.

تلتفت له "ملك" في نظرة باردة أن تنحَ عن الطريق، وصدمه البرود الغريب في عينيها لدرجة أنه لم يدرك أنه أصبح يقف أمامها ويقطع عليها طريق الخروج، وثبتْ على موقفه حتى أزاحته بقسوة من طريقها ومضت إلى عطفة صغيرة نشأت على الفور أمامها متفرعة عن الشارع الوحيد الذي خطه شعبان في حارة "ضبعة"، وها هي الفاجرة تضاجع حلمه وتعدل في هندسته وتزيحه من طريقها كالحشرة!

ثارت ثورته فوقف للحظات لا يعرف إن كان يتبعها ويحاول أن يقتلها أو يسد عليها العطفة التي ظهرت بسببها في الحارة وينتهي من هذا الكابوس الذي يزاحم حلمه، أو أن يدخل إلى "خضير" ويواجهه بفعلته المشينة. وما أن اختفت "ملك" في عطفتها التي ظهر فيها بيت صغير أنيق، حتى قرر "شعبان" أن يهجم على الغرفة ويضع "خضير السرساوي" أمام حقيقته،

أنه مجرد وهم في دماغ صاغه "شعبان" بنفسه، وليرهذا الذي تحقق لتوه جنسيًا كيف يكون الحال عندما يعرف أنه مجرد طيف يحيا ويموت بأمر مطلق من "شعبان".

يدخل "شعبان" ليجد "خضير" عاريًا كما ولدته أمه - إن كانت قد ولدته أم أصلاً - وقد استلقى على أرض الحجرة العارية وأخذ صدره يعلو ويهبط بينما تتردد أنفاسه العالية بين الجدران. يرفع "شعبان" إحدى القلتين من الصينية، ويكسرها على الجدار فيتطاير فخارها وماؤها على جسد "خضير" الذي يقوم فزعًا ليرى "شعبان" في حالة ثورة جنونية:

- بتخونني يا كلب يا إبن الكلب؟
- إهدا يا عم "شعبان" فيه إيه بس مالك؟
- بتركب المومس دي من ورايا وفي أوضتي يا وسخ؟
- يا عم شعبان أنا ماليش دعوة، هي قالتلي إنها قالتلك، وان إنت اللي قلتلها.
- كذابة، ماحصلش، ما حصلش، وإنت كمان ما حصلتش يا خضير.

يبتسم "خضير" رغمًا عنه فاشخًا فمه عن أسنانه المبعثرة لظنه الساذج أن ما يقوله "شعبان" محض مجاملة بعد أن سمع صوت استغاثة المرأة تحت دك فحولته، ولكن "شعبان" يواصل:

- انت وهم، مجرد وهم أنا اخترعته علشان يقتل أبويا، إنت مش موجود أساسًا يا "خضير"، أنا اللي خلقتك وأقدر ألغيك في أي لحظة زي ما لغيت غيرك.

خطأ شعبان أنه فكر أكثر مما يجب عندما اخترع شخصية "خضير"، فجعله مباشرًا سطحيًا مفعمًا بالآلية في التعامل والفهم، كما أنه وضع فيه خواص بوهيمية بارزة على رأسها أنه يمتلك غريزة دفاعية قوية أدرك بها أن "شعبان" يقصد بإلغائه أنه يريد قتله، فانتصب رافعًا حاجبيه في تأهب، ولما شهد منه "شعبان" هذا التحدي لم يستطع منع نفسه من الجري مسرعًا إلى أدوات الطهي ليجر منها سكينًا طويلة ويهجم بكل ما

أوتي من قوة على "خضير"، ويتصدى "خضير" للهجوم بسهولة بالغة ويمسك يد "شعبان" التي تحمل السكين ويلويها إلى الوراء ويهزها حتى يسقط منها السكين، فيوجه "شعبان" لكمة يائسة قاصدًا فك "خضير"لكن ضربته طاشت عندما دفعه "خضير" بخفة إلى الوراء، فتطوح "شعبان" بلا هدف ودار حول نفسه نصف دورة، ثم التفتَ وقد بلغ هياجه ذروته واندفع نحو "خضير" يريد أن يدفعه نحو الحائط، لكن "خضير" استقبل اندفاعة "شعبان" المجنونة برأسه التي ارتطمت بها رأس الأخير بعنف أوقف ثورته تمامًا ودفع به إلى ظلمة حالكة بعد أن انقطع اتصاله بوعيه بفعل النطحة الخرافية.

• • •

اليوم الثاني لـ"عبد المجيد أفندي" على كتفي "ظريف"، السعادة تكاد تأسر عقله فيذهب في الدنيا بلا عقل،

كل ما كان يخشاه وقع بالفعل، ووقوع بلاء الخروج إلى الجمهور والاحتكاك المباشر بالعدادات المعلقة لا العدادات الميتة، ياه، هذا أفضل ألف ألف مرة من انتظاره، يا ليت مدة الخدمة تمتد ولو لأسبوعين تاليين بلا سبب حقيقي مرتبط برغبته في إشباع احتياجه العاطفي من مهنته، كل ما في الأمر أن ركوبه على كتفي "ظريف" أورثه شعورًا عارمًا بالثقة لم يشعر به في حياته، وهو ما يطمع في مواصلته، فخطورة ضآلته الحقيقية تكمن في أنه يعرف أنه ضئيل، يدرك بداخله أن ضآلة جسمه هي عقوبة الطبيعة على ضآلته النفسية والروحية، ولولا هذا الأصل ما خرجت الصورة على صورتها المختصرة إلى هذه الدرجة المضحكة.

واليوم يشعر "عبد المجيد أفندي" أنه أطول قليلاً من البشر العاديين، يشعر أنه أطول قليلاً من "سلطان"، وأطول كثيرًا من "العربي"، وبالتأكيد أطول وأضخم كثيرًا من نفسه السابقة التي أصبح من الأمس يعتبرها تاريخًا منسيًا، وأصبح يصدق اليوم أنه كبير.

ـ صدج يا واد يا ظريف؟ آني من غيرك كان زماني واجف مبلول تحت أي عداد من إياهم ومستني حاجة ما عارفش إيه هي، بس الحمد لله ربنا ساجك ليا وخلاك تحت مني كده سند، حاكم اللي زيّ مابيحتاجش سند يسنده، آني عايز سند يشيلني، زي ما انت شايلني كدة.

ولا ينتبه "عبد المجيد أفندي" لرد "ظريف"، رغم أنه نطق كلامًا رقيقًا، له أغلب الظن علاقة بدور في الحياة يقوم به بعض الناس لغرض ما، لا يهم... المهم هو أن "عبد المجيد أفندي" مشغول بمشاهدات كان محرومًا منها ما يقارب الستين سنة، وأصبح الآن يشاهدها من موقع أفضل من الآخرين، والأهم هو أنه أصبح يقدر خلقة الله السوية في البشر دون نقمة على خلقته العجيبة، فربما وصلت به المنحة الأخيرة إلى حالة من الرضا والقناعة بأن الصبر على العلة يؤدي في النهاية

إلى ترضية سماوية ما. صحيح أن الركوب على كتفي "ظريف" لا يبدو حلاً جذريًا لمشكلة قصر قامة "عبد المجيد أفندي"، إلا أن الرجل أسقط من رأسه حالة التأقيت واعتمد على ما لـ"ظريف" من صفات الحيوانات الأليفة التي تلتصق بأصحابها وتخدمها مدى الحياة دون الحاجة لمبررات منطقية.

•••

يفيق "شعبان" بعد يوم كامل من الغيبوبة، لكنه لا يفتح عينيه؛ فالصداع يضع على أجفانه أحمالاً من الرمال لا يستطيع معها إلا أن يظل مغمض العينين، كما أن الهمهمات من حوله تشي بتزاحم غير معتاد في حجرته التي ليس من المعتاد أن يدخلها عدد كبير من سكان "ضبعة"، وإلا فقد السيطرة واضطر إلى إسكات بعضهم كي يملك زمام الشخصيات الأخرى.

يفتح عينيه بصعوبة فيجد نفسه في غرفة كل معالمها بيضاء، السرير والأفرشة والبارافان والحامل الذي يحمل التليفزيون، حتى طلاء الغرفة والنوافذ والمقعد الوحيد في الغرفة مكسو بالجلد الأبيض، وتجلس عليه "ملك"، لكنها هذه المرة تلبس بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصًا خفيفا من الكتان البني الفاتح، وبدأت الكلمات تخرج من فمه ثقيلة متعثرة في دوامات من الألم تدور برأسه:

ـ ملك!

ـ ملك مين يا حبيبي؟ أنا سالمة.

ـ ملك!

ـ سالمة يا مصطفى، سالمة يا حبيبي، سلامتك انت بقيت كويس؟

ـ ملك!

ـ حبيبي، انت لسة تعبان حاول ترتاح بس وما تقلقش أنا قاعدة لحد ما تفوق.

لا يستجيب "شعبان" لتوسلها الصادق له كي يبقى في نومته المريحة ويسحب ظهره في سرعة ليعتدل في وضعية أقرب إلى الجالس، ويغمض عينيه محاولاً محو الخيالات التي بدأتْ "مَلك" تزرعها في "ضبعة" وفي حجرته التي تحولت بقدرة قادر إلى كيس كبير من القطن كل ما فيه أبيض، ثم يفتح عينيه فجأة وينتفض ناظرًا عندما يجد الغرفة كما هي ويجد "ملك" وهي ما زالت جالسة على المقعد الملاصق للفراش وقد مالتْ نحوه ووضعت يدها الرقيقة على كتفه محاولة تهدئته.

يفيق "شعبان" دفعة واحدة من غيبوبته ويبدأ في التوتر وهو ينظر حوله بلهفة الرافض لا لهفة المشتاق:

ـ أنا فين هنا؟ أنا فين؟ سالمة مين؟ مصطفى مين؟ ومين ده؟

ـ ده صلاح يا مصطفى، صلاح أخويا.

ـ يا نهار اسود؟ هو فيه صلاح كمان؟ انتي يا ست انتي عايزة مني إيه؟ مالك ومالي؟ أكلتي بعقلي

حلاوة وقلنا ماشي، دخلتي الحارة قلت الضيافة واجبة ومافيهاش حاجة لما الحارة تدخلها حتة طرية غير زبيدة، نمتي مع خضير النتن؟ مافيهاش حاجة كل النسوان بيحبوا التيران أكتر من الرجالة، إنما جايباني هنا ليه يا بنت الناس؟

كل هذا و"سالمة" تحاول تهدئته بينما دار "صلاح" حول الفراش وبدأ في تنفيذ إجراءات أملاها عليه الطبيب قبل أن يخرج بضرورة أن يمنعه من الحركة الزائدة والانفعال الحركي الذي قد يتحول إلى سلوك عنيف، هكذا قالها الطبيب من وراء نظارته ذات الإطار النحاسي السميك والمعلقة على أنف يشغل ثلاثة أرباع وجه تملأ البثور ربعه الأخير.

طوّق "صلاح" "شعبان" وتمكن بسهولة من تثبيته في الفراش، بينما كان الأخير يحاول التملص من ذراعيه القويين وهو يحاول الاشتباك مع "ملك".

ـ وحد الله يا أبو "عمر" بقا، جرى إيه يا راجل؟ كل حاجة ها تبقى زي الفل يا ريس وترجع أحسن من الأول إن شاء الله، هي كلها خبطة هبلة والله وما تستاهل كل اللي انت عامله ده.

يلتفت "شعبان" إلى صاحب الصوت الذي يحتضنه من الخلف، فيراه رجلاً في منتصف الثلاثينيات به بدانة واضحة ووجه مستطيل وأنف مدببة وفم واسع يكاد يبتسم ولو ليس هناك مبرر للابتسام، وفوق رأسه شعر خفيف ناعم، ولا يشعر "شعبان" أنه يعرف هذا الوجه، فيسأله في براءة:

ـ إنت مين يا بني انت؟

ـ أنا "صلاح" حبيبك يا درش، انت بس تعبان شوية والحقنة تلاقيها قالبة راسك ومعكننة عليك، أنا قلت للدكتور الحمار ده والله الراجل ده مش بتاع حقن، ده بتاع سجاير ملفوفة وحجر يبوس حجر، ما حدش صدقني والله يا درش.

ـ إيه يا جدعان فيه إيه؟

تبدأ "سالمة" في استيعاب الموقف قبل "صلاح" الذي كان يأخذ الأمر ببساطة تغفله عن حقيقة أن الضربة العنيفة التي تلقاها "مصطفى" في مظاهرة الأمس التي كان يغطيها مراسلاً لوكالة أجنبية قد أثّرتْ على تركيزه، أو لعلها أثرت على عقله بالكامل، وأنه ربما يرى الآن هلاوس ويسمع هلاوس أخرى، وتندفع بلهفة تعرفها الأمهات دون غيرهن نحوه لتحتضنه وتنفتح في بكاء صامت لا يملك معه "مصطفى" سوى أن يتخلى عن عدوانيته ويحتضنها برفق بذراعه الذي أفلته "صلاح" عندما أدرك شعور صديقه الدافئ نحو "سالمة"، ووجد "شعبان" يده الثانية تزحف بذاكرتها الخاصة إلى شعر "سالمة" الذي بدأت رائحته المألوفة تخترق حواسه الخمس.

ـ مصطفى.. أبوس إيدك ما توقعش قلبي، ولا حتى يكون تهريج إنت عارف أنا أموت لو جرالك أي

حاجة، والله ساعتها ما قدرتش أنزل من البيت علشان أكون معاك، أنا متأكدة لو كنت وصلتلك إمبارح ما كانش حاجة من دي حصلت.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

ويدفع "شعبان" "سالمة" برفق عن صدره دون أن تفوته الدهشة، تلك الدهشة التي تصيب المحبين عند أول احتضان كيف أن الحبيب يساوي تمامًا كم الفراغ، وعند أول قبلة كيف أن الشفة تسعى بين الشفتين حتى تصل إلى مكان مسجل في ذاكرتها، وعند أول إمساكة يد كيف راحة يد الحبيب تتسع ليد الحبيب تمامًا بلا زيادة ولا نقص.

ينظر إليها ويشعر أن كل غرائزه الوحشية تتعطل إذا ما التقتْ العيون، وكيف أن رغبته في مقاومة هذا الوهم تتشتتْ إذا ما التقطتْ روحه هذا التجلي الأثيري المندفع من جسد "ملك"، أو "سالمة" لا يهم، المهم أنها هي، ويتمسك عقل "مصطفى" بالوهم الجديد تمسك

الغارق بوهم القشة السابحة، ولكن مرّ برأسه فجأة صراخ نشوتها الداعرة وتأوهاتها التي تستعجل قذفة "خضير" وتترجاه يملأها، فصرخ على الفور.

ـ زانية.. مومس يا بنت الكلب.

يعود "صلاح" إلى تقييده، ولكن هذه المرة يفلح "شعبان" في الإمساك بـ"ملك" من قميصها بينما ينهال عليها بأقذع الشتائم وهو يحاول التملص بكل قوته من "صلاح"، ولما يئس من فك ذراعيه الذين قبضهما حول ذراعية ككلابين من الحديد، عاد برأسه إلى الوراء بسرعة وعنف فترتطم بأنف "صلاح" الذي يفلته ويتراجع ممسكًا بوجهه وقد أفقدته الضربة توازنه، ويقفز "شعبان" واقفًا على الفراش ومنه إلى الأرض، ثم يثب نحو الباب ويمد يده إلى المقبض ويحاول فتحه فيجده موصدًا، ثم يلتفت لا إراديًا إلى "صلاح" الذي كان يتوقع ثورة "مصطفى" فأوصد الباب من الداخل واحتفظ بالمفتاح في جيبه، ويبدأ

على الفور في الدوران في الحجرة بحركة عصبية عنيفة محطمًا كل ما تطاله يده، ودافعًا الأثاث في كل مكان، بينما بدأ "صلاح" يتأهب لمعركة لا يملك فيها أن يرد ضربة بمثلها وهو قادر.

- انتو عايزين مني إيه بالزبط؟ عايزين إيه؟ أنا عايز اخرج من هنا! خرجوني من هنا أنا مش حد تاني أنا "شعبان" يا عالم حرام عليكم، أنا شعبان! افتحوا الباب عايز أخرج والنبي حرام عليكم عايز أخرج من هنا.

ترتد "سالمة" نحو جدار الغرفة وهي تضع يدها على فمها محاولة كتم الصراخ، لا تريد هي أن تستدعي الطبيب، لا تريد هي أن يراه غريب في هذه الحالة، لا تريد هي حتى أن تشعره بأنها مستاءة بأي شكل من حالته المزرية، وتكتم الصراخ ولا تستطيع كتم البكاء الذي لم يعد صامتًا هذه المرة، كما لم تستطع أن تقاوم خوفها من هذا الشخص الذي يلتبس حبيبها

فيجهلها ويجهل "صلاح" ويجهل نفسه أيضًا، وكأن حيوانه أدرك خوفها فتحول على الفور عن "صلاح" واتجه إليها، وعندها لم تستطع أن تمنع الصراخ فخرج صوتها أقرب إلى صرخة استغاثة إلى الله لا إلى غيره أن يسعف "مصطفى" مما به ويعيد إليه نفسه الرقيقة الهادئة اللطيفة التي أحبتها حتى ملأ الحب حكايتهما معًا.

وتأتي الرحمة عندما يتعثر "مصطفى" في غيبوبته التي دخل فيها مرة ثانية بمجرد أن حاذاها ونظر في وجهها نظرة أخيرة نصفها حيرة ونصفها غضب، وسقط.

تستمر الغيبوبة هذه المرة يومين، يفيق بعدهما "شعبان" في حالة إعياء شديدة، ويجد "خضير" إلى جواره وهو ما زال عاريًا، ووجهه يشي بأنه لم ينم منذ وقت طويل، وهيئته تدل أنه بالتأكيد لم يتحرك من مكانه قط طوال إغماءة "شعبان" الطويلة. ينظر "شعبان" إلى جسد "خضير" بتدقيق ويتأمل تفاصيله البهيمية المدكوكة، أكوام من اللحم من فوقها أكوام من اللحم

يكسوها شعر طويل كثيف، هو مرحلة بدائية من البشر أو مرحلة نهائية من الغوريللا، ولكنه على أي حال لا يمكن أن يكون بشرًا سويًا.

هذه هي المرة الأولى التي يلاحظ فيها "شعبان" أن "خضير" يمص إبهامه طوال الوقت كلما شعر بأنه غير منتبه له، وهي المرة الأولى التي يلاحظ فيها "شعبان" أن "خضير" لم ينم منذ أن خرج من السجن قبل أسبوع، هل من الطبيعي ألا ينام شخص طوال هذه المدة؟ هل من الطبيعي أن يبقى عاريًا إلى جواره طوال هذه المدة وفي هذا البرد القاتل دون أن يشعر بحاجة لأن يستر نفسه بجلبابه الملقى إلى جانبه؟

"خضير" محض اختراع؛ وهم اختياري، يُدرك "شعبان" ذلك وليستْ تساؤلاته تشكيكًا في إخلاصه لهذا الوهم الذي تحول في رأسه إلى وطن له سقف وله جدران وأهل من لحم ودم، وإنما هي على الأرجح تعديلات يرغب في إدخالها على هذا الوهم الذي

سقط أمام اختبار أول دخيلة عليه. حارة "ضبعة" تحتاج إلى صياغة جديدة أكثر حصانة.

تدور برأسه ذكرى "ملك" وما كان منها مع "خضير" ولكنه هذه المرة لا يشعر بأي كراهية لـ"خضير"، بل إنه لا يشعر بأي حقد أو غضب على "ملك"، فقد أكد له كابوس الغيبوبة المؤلم أنه يحبها، ويغفر لها كل شيء وأي شيء ويقبل منها كل شيء وأي شيء، لا فارق، فهي قدره وورطة الحلم التي لا يملك إلا أن ينزلق فيها ويستمتع بالغوص في سرها الخفي.

صوت طرق ضعيف على باب الحجرة ويدخل "سلطان الحرامي":

- سلامتك يا سي "شعبان" سمعتْ إن البغل ده بطحك، ألف سلامة عليك، إن شاء الله تقوم زي القرد.

لا يستاء "خضير" كثيرا لوصفه بالبغل، فهو في داخله يشعر أنه بالفعل بغل، ولكنه لضمان التأكد سأل "سلطان":

- مين اللي بغل يا سي سلطان؟
- إنت يا حبيبي، إنت بغل
- ليه؟
- إنت يا بني عبيط؟ مانتاش شايف منظرك؟ هي دي خلقة بني آدمين؟

لم يعد "شعبان" يتعجب للتغيرات التي تعصف بحارة "ضبعة"، "سلطان" يدخل حجرته للمرة الأولى في حياته، ويتحدث في الحارة بلا تردد، ويتحدث إلى "خضير" بلا وساطة من "شعبان" كما فرض "شعبان" على شخوص حلمه، ويرد عليه "خضير" أيضًا دون وساطة، ولكن "شعبان" أصبح الآن يعرف أن حلمه سيختار تغييره بنفسه، وواضح أن التغيير منصب في الأساس على تهميشه، كأنه لم يعد موجودًا، أو ربما هو نفسه ليس موجودًا.

أيًا كانت قدرة الإنسان على الشك وجرأته على التشكيك، لا يمكن أن يقدر أو يتجرأ على الشك في حقيقته، ولا يمكنه التشكيك في وجوده، لأنه في هذه الحالة يفقد الرابط المنطقي بينه وبين عقله فلا يكون. و"شعبان" إن يدخل هذه الدائرة فلا ثمن لشكه إلا تخليه عن حارة "ضبعة"، وعن وجوده الاختياري فيها وبين أهلها التخيليين الذين لم يخترع وجودهم وكينونتهم لترف عقلي أو رياضة ذهنية، وإنما لأن الحياة بدون هذا الوهم كانت مستحيلة.

يدخل "العربي" إلى الغرفة سكرانًا لدرجة الطينة، وهو يحمل في يده زجاجته المبططة، ويجر في يده الثانية "ظريف" الذي ما زال يحمل "عبد المجيد أفندي" على كتفيه وإلى جوارهما أسرة "عبد المجيد"، الأولاد الثلاثة والزوجة العجفاء، وقبل أن يبتلع "شعبان" فكرة تجمع هذا العدد الكبير من سكان الحارة في حجرته لزيارته ظهرتْ في الحجرة وجوه "ملك" وأبيها

الأسطى "نعيم" و"السرساوي" الذي ظهر قتيلاً والدم الحار ما زال ينزف منه، و"زبيدة" وهي تحمل ابنها "إنسان" ويتعلق بجلبابها طفل جديد ربما أنجبته هو الآخر في غفلة من سيطرة "شعبان" على الحارة، وجوه كثيرة ازدحمت بها حجرة "شعبان" وهو لا يتحرك من رقدته بينما ينظر للمجتمعين الذين وقفوا من حوله بما فيهم "خضير" العاري وزوجة "سلطان" وكتابها الوحيد.

الجو تفوح منه رائحة المحاكمة الجماعية، فالجميع لا تظهر على وجوههم أي تعبيرات، وجوههم كأنها مصورة ومثبتة على ألواح خشبية، ويبدأ الكلام جماعيًا، الكل يتحدث في نفس الوقت، "شعبان" يدافع عن نفسه قبل أن يبدأ الهجوم المتوقع، و"عبد المجيد أفندي" يتكلم بصوت العنزة السوداء موجهًا كلامه لـ"خضير" الذي وقف يمص إبهامه علنًا وبلا خوف من أبيه الواقف إلى جواره ينزف في صمت،

و"العربي" يفتح عقيرته بمونولوجه الأبدي عن أهميته وأفضاله على الدنيا كلها لا حارة "ضبعة" فحسب، بينما بدأ "سلطان" الحرامي حديثًا امتد لآذان الجميع، ولعلها هيستيريا جماعية!

بدأت زوجة "سلطان" تقرأ في كتابها بصوت مرتفع، ولأول مرة يتبين "شعبان" أن لها صوتًا، ولأول مرة يتبين أن الكتاب في يدها هو نسخة من مسرحية (يا طالع الشجرة)، أما "ملك" فقد اندفعتْ إلى صدر أبيها، وأجهشتْ في البكاء، وبدأت الأصوات تعلو والمناقشات تحتدم ويتحول المكان إلى قلب ماكينة جبارة لها طنين يصم الآذان، وتتطاير من داخل الطنين عبارات تصل بصعوبة إلى أذني "شعبان":

ـ حظي وحش في الدنيا يابا

ـ ...

ـ لو السكر شح اليومين دول ما بدهاش، لازم.

ـ هاقتلك ميت مرة يا بن الكلب، وكل ما تصحى هاقتلك تاني.

ـ ...

ـ بلا نيلة يا ختي، هي النسوان بتاخد إيه في الآخر؟ ما هو كله كلام.

ـ المحقق: تقصد أنك دفنتها ولكنك لم تقتلها!

الزوج: لم أقتلها.

المحقق: ولكنك دفنتها.

الزوج: هذه مسألة أخرى بيني وبينها، ولكنني لم أقتلها.

المحقق: ومن الذي قتلها؟

الزوج: أهي قُتلت؟

المحقق: أنت أدرى، مادامت قد دُفنت.

الزوج: أهي حقا دُفنت؟

ـ وعهد الله يا جدعان ما جابت غير "العربي" وقفلت ضبة ومفتاح.

ـ أما النظر من فوج؟ يا بوووووي، دنيا تانية وحال.

ـ ما حدش، مش أنا.

ـ جده كان كدة، وأبوه مات مجنون برضه.

ـ ولا أنا، مين؟

ـ إنسان من النسيان يا أسطى "شعبان".

ـ "أبوح يا أبوح...كبش العرب مدبوح... وأمه وراه بتنوح وتقول يا ولدي... يا لابس الزردي... سكنتك خوصه... على الرف مرصوصه... ما رصها والى إلا أنت يا غالي يا نور على نور... يا مكحله بنور يلعب بها الغندور في ليلة القمره"

ـ دي عيلة الجنان فيها وراثة يا سي "سلطان"، كلهم كدة.

ـ سامع... وشايف، طبعًا سامع وشايف.

ـ دي مهنيا مهزلة.

ـ والله انت بتاع كلام على الفاضي وساعة الحنية.

ـ اخرس يا جبان.

ـ يا قمره على قمره

يا طالع الشجرة

هات لي معاك بقرة

تحلب وتسقيني بالمعلقة الصيني

ـ نصيب بقا.....................

ـ ... ما لهاش حل.............

ـ يا حارة الدود والعفن يا جنان يا........................

وينتصر الطنين.

وتخرس كل الأصوات دفعة واحدة، وتخرس كل الصور دفعة واحدة، ويعود "شعبان" من جديد إلى نقطة الغيبوبة.

• • •

يستيقظ "شعبان" خفيفًا رغم هزاله والضعف الذي أنهكه طوال الأسبوع الماضي، خمس دقائق نقلته إلى الشارع العمومي سار خلالها على قدميه حاملاً على ظهره حقيبة من القماش، ومن الشارع انحرف إلى طريق صلاح سالم حيث استقل سيارة ميكروباص متجهة إلى ميدان السيدة عائشة، وهناك ذاب في زحام المارة والسيارات والضوضاء الاستثنائية المميزة لهذا المكان، ولكنه لم يتخل عن هدوئه ولم يظهر على وجهه ذلك الضياع المرتسم على وجوه الجميع في هذا المكان بالذات، فلا يحدث قط أن تجد بينهم من يعرف على وجه التحديد إلى أين يتجه، حتى لو كان عارفًا وجهته.

اخترق طريقه بين أنقاض البشر حتى وصل إلى بناية من ثلاث طوابق تطل مباشرة على الميدان، صعد سلمها بسرعة من يعرف طريقه جيدًا، حتى وصل إلى

الطابق الأخير، أخرج من جيبه مفتاحًا مفردًا لا تصحبه كالعادة مفاتيح أخرى، ودسه في ثقب الباب وأداره ليفتح على شقة خالية تمامًا من أي أثاث.

اتجه "شعبان" مباشرة إلى حمام الشقة الذي بدا منمقًا مرتبًا ويحوي كل أنواع المنظفات الفاخرة، وبمقارنة سريعة بين الحمام وبقية الشقة العارية من الأثاث لن يحتاج الأمر إلى كثير ذكاء كي تدرك أن هذه الشقة ليست سوى هذا الحمام، وأنها تقريبا لا تؤدي وظيفة أخرى غيره.

يخلع ملابسه بسرعة ويقف تحت الدش لعشر دقائق بعد أن أغرق جسده بقدر لا بأس به من المنظفات، ولم ينس وضع المذيب الكيميائي على يده التي سقطت منها صبغة سوداء غيرت لون الماء في المغطس واتجهت في قناة نحو فتحة الصرف.

عاد "شعبان" نظيفًا، وبعد أن ارتدى قميصًا حريريًا أبيضَ على سروال من الصوف الإنجليزي الرمادي الفاخر، بدأ يربط ربطة عنق سماوية اللون على الرغم من فخامتها تذكر بموظفي البنوك الإنجليز، يشبه بعضهم بعضًا ولا يميزهم عندما يرتدون ستراتهم السوداء سوى ربطات العنق الفاقعة اللون، إما من مشتقات الأحمر أو من مشتقات الأزرق.

دربة يد "شعبان" على ربط ربطة العنق تؤكد أن الرجل لم يقض سنوات عمره الأربعين في صناعة الأحذية وإصلاحها كما كان يعتقد سكان حارة "ضبعة".

ينتهي "شعبان" من ارتداء ملابسه، ويختم أناقته برشة من عطر فرنسي قوي ويلقي على المرآة نظرة أخيرة يتأكد منها أنه عاد كما كان، "مصطفى الهواري" المذيع الكبير في الإذاعة العالمية وزوج "نبيلة" ابنة "عبد القادر صوان"، الطبيب الشهير.

• • •

يهبط "مصطفى" من سيارته الرياضية الزرقاء إلى حديقة فيلا أنيقة في المعادي انفتحتْ بوابة حديقتها بمجرد اقترابه من الأسوار، وجرى إليه طفل في الثالثة، تحبو وراءه طفلة أصغر يعبث بملابسها كلب ذهبي الشعر، وفي نهاية الحديقة جلست "نبيلة" التي هبت إلى لقائه بمجرد أن رأته، وعلى مقعد الحديقة تترك وراءها كتابهًا: "حمد الله على سلامتك يا حبيبي، ما قلتش ليه وأنا كنت جيت أخدتك من المستشفى".

يحتضنها بود واضح: "إزيك يا "نبيلة"، الله يسلمك، أنا بقيت زي الفل".

ويتجاوز تحيتها لينحني على يد رجل عجوز ضئيل يجلس منحنيًا على كرسي متحرك وقد تغطى نصفه الأسفل في بطانية باللونين الأحمر والأسود: "إزيك يا بابا، عامل إيه يا جنرال" ويقبل اليد المعروقة ولا ينتظر إجابة من الشلل والخرس والعمى الذي يزحف حثيثًا.

يخلع الجاكيت الكحلي في طريقه من بهو الفيلا إلى طابقها الثاني عبر سلم خشبي يؤدي إلى طرقة طويلة

تقع في آخرها غرفة نومه، وفي الطريق يمد يده في جيب الجاكيت يخرج منه هاتفه المحمول ويضغطه لتنزلق شاشته وتضيء بضوء فضي، يجد رسالة نصية قصيرة يفتحها.. "حمد الله على سلامتك، خضيتني عليك، يا رب تكون كويس، سالمة".

يضغط على زر الرد: "الله يسلمك، أنا كويس، عُمْر الشقي بقي، أشوفك بكرة".

يضع الهاتف على طرف حوض الحمام كعادته وينظر في مرآة الحلاقة، يرفع ذقنه إلى أعلى ويفركها بيده، ويحول وجهه إلى اليمين ليتفحص أثر جرح بسيط على جانب جبهته، ويبتسم لنفسه ابتسامة ذات معنى، يفك أزرار قميصه الأبيض، ويتسلل خارج الملابس، وينزل تحت الدش، يفتح الماء ويتركه ينساب بقطراته العشوائية على جسده، ويغمض عينيه ولا يحلم بحارة "ضبعة" مرة أخرى.




حارة ضبعة

واقع؟..

ليس ثمة واقع!

فما الحياة إلا حلم في دماغ لا يفيق منه إلا الموتى

وأكثر رعب الإنسان أن يعيش في حلم إنسان آخر

ليجد نفسه مضطرًا للحياة داخل ضعفٍ ليس له،

وألمٍ ليس عليه، وضميرٍ ليس من حقه.

إبراهيم الجارحي

garhi@teetradio.com


شمس
ش
للنشر والتوزيع
٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢)   ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢)
www.shams-group.net